# مَمْلَكَةُ الهَالُوك

الطبعة الأولى
1446 هـ
2025 م

اسم الكتاب: مملكة الهالوك
التأليف: خالد بدوي
موضوع الكتاب: رواية
عدد الصفحات: 180 صفحة
عدد الملازم: 11.25 ملزمة
مقاس الكتاب: 14*20
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع : 2024/3202
الترقيم الدولي: 978-887-6697-911

محفوظة جميع الحقوق

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الناشر.

hakayaproduction@gmail.com
01551751909 _ 01096476744

# مَمْلَكَةُ الهَالُوك

رواية

تأليف

خَـالِد بَدوي

حلاوي
للإنتاج الفني

أَنَـا لا أُجِيـدُ المَـدْحَ بالإنشَـادِ لَكنَّـهُ شَـوقِي إلـى الأحْبابِ
قـدْ هـزَّ وَجـدي وَعـمَّ فُـؤادِي وحَـوانِي في حِـلِّي وعنـدَ رُقَادِي
يا سَـائرين في رُبـوعِ الوَادِي تبغونَ أهـلَ القُربِ والإسْـعَادِ
هـذا مقـامُ العـارِفِ الإمبـابي فيهِ السـكينةُ والخشـوعُ البادِي
وعليـهِ نـورٌ مـن ضِيـاءِ الهَادِي يَراهُ كُلُّ تقيٍّ ومـلازمِ الأعتابِ
فهـو المُنسـبُ إلى خـيرِ صِحابي مولانا: سعدُ عبادةِ الأنصـارِي
وأبـو عِلـمٍ مِن خـيرِ العِبـَادِي قـدْ خَصَّـهُ البـدوِيّ بالإرشـادِ
ولقَـاهُ عَبـدُ العـَالِ بالترحَـابِ لَّـا رَآهُ صـادقًـا فـي إنـابِ
أوصـاهُ دومًـا يلـزمُ الأصْحابي ودَعاهُ أن يبقـى في جِيه الإمبابي
ظهـرَ الينبوعُ بعدَ طُولِ جهادِي لنَجْلِـهِ إسـماعيل فنـالَ المُـرادِ
حـازَ عُلومًـا مَـا لهـا مِـن نَفَادِ شريعةً وحقيقـةً ومسـلَكَ الزُّهادِ
وصار للشـافعيَّة فقيهًـا للروَّادِ يسـعى إليهِ الخَلقُ مِـن البوَادِي
رَدَّتْ كَرامَاتُـه كَيـدَ الأعـادِي ونبَّـأ بإحداثٍ مِن قبـل المَعادِي
يا رَبُّ صَلِّ على الرسول الهادِي مَـا لاحَ نجـمٌ أو ترنَّـم شـادِي
وامنحْ رِضاكَ للعارفِ الإمبابي أدامَ عليـه واسـعَ الإمـدادِ

(منقول)

# تمهيد

لـمْ يسـتطعْ الموظـف -المُكلَّف بمهامِ عملِـهِ مِن قِبـل المُحافظة- الجلوس بالمَمر بين الغرف؛ بسـبب شـدة الحرارة، وشعر باختناق من الروائح الكريهة، التي تَهبُّ مِن الغُرف التي مرَّ عليها؛ ليفحصها.

"خميـس": ابـن الرَّيـس عبد الحكيم، جـاء مهرولًا يحمـل مقعدًا بلاسـتيكيًا، قد جاء به من غُرفة: "سـمير مبروك"، إلى الشارع العمومي أمام المَدخل، يمسح المقعد بحِجرِ جلبابه: "تفضَّلْ يا باشا، هنا كويس". الموظف يجفف عرقه، ويزدرد رِيقه الجاف، وقد طلب إحضار منضدة، بحثنا عنها بين الغرف، فوجدناها بغرفة "سـامية"، وحملتُ عنها أشـياء أثقلَتْ لوحها الموسكيّ رخيص الثمن، وتزاحموا جميعًا حول الرجل، فكلٌ منهم يريد بثَّ شكواه، وأن يكون له الأسبقية في الحَكيّ.

داخـل كل غرفة مأسـاة، فـكلٌ يتحدث في صوتٍ واحـد، اختلطت الأصوات، علا ضجيج المكان، الموظف يشـعر بالضجر، ينهر سُـكان الغرف، بأن ينفض هذا الجمع مِن حوله، وبإصرارٍ يأمرهم بأن يبقى من كل غرفة رجلٌ واحد؛ لكي يُملي عليه البيانات المطلوبة، وإحضار صورة مـن بطاقة الرقم القومـي، خطب "الريس عبد الحكيم" في الناس، حتى يتسنى للرجل القيام بمَهامِ عملِه على أكمل وجه، يجب أن نلتزم بالنظام، فخرجـت أَمُّ سـامية مُسـرعةَ من غرفتها، كاشـفةً عن شـعرها المصبوغ

بلـون كِسـتنائيّ: "الغلابة اللـي معندهمش راجل يترمُوا في الشـارع!".

التفَّ اثنا عشر شخصًا حول الموظف، الذي أخرج من حقيبته الجلدية أوراقًا وقلمًا، وطلب من كل فرد أن يُجيب عن الأسئلة التالية؛ ليدخلوا جميعًا قائمة الانتظار بالمحافظة؛ لكي تتسـلم كل أسرة شقة بالمساكن الجديدة التي أُعدَّت، وكلٌ يقف بعيون مُتربصة مُترصدة للحدث، يشعرون بأن موظف المحافظة هو الفرج بعد الضيق: "اسمك إيه ياحاج؟" همس بها الموظف، هو يفحص الأوراق التي أمامه، وشـرع يسـجل البيانات.

يقول الرجل مبتسمًا: عبد الحكيم محمود حُسين الرَّيس.

وضعت أُم سامية يديها على وسطها؛ تحتَجّ: "إشمعنا هوَّ الأول؟".

تعالَت الأصوات، وثاروا جميعًا بين مُؤيدٍ ومعارضٍ للمرأة، ونشب شِجار، وظلَّ الخلاف قائمًا حول مَّن يملك الأسبقية؛ لتسجيل البيانات المطلوبـة، قال الأسـتاذ: رأفت ـــ الذي أحضر للموظـف زجاجة مياه غازية-: إن أكبرهم سِنًّا هو مَن له الحق، ثُمَّ الذي يليه، وارتضوا جميعًا هـذا الأمر، وتسـاءل أحدهـم: أين "عمّ عرفـة الغريب؟" يقـف الرجل بعيـدًا (يهـرش في خصيتَيه)، شـاخص البصـر إلى أُفقٍ بعيـد، ولا يهتم بهذا الضجيج، وطلب منه الموظف أن يقترب: "اسـمك إيه يا حاج؟"، فهَمْهَم الرجل بكلماتٍ غير مسموعة، ونظر إلى مُقدمة حذائه، وانصرف ببطء شديد (يتمخطر)، وكأن شيئًا لم يكُنْ، ضجَّوا جميعًا بالضحك.

همس الأسـتاذ "رأفت" للموظف؛ أن يواصل عمله، وسـوف يوافيه ببيانات عمّ: "عرفة الغريب"،

انتهى الموظف من كتابة الأسـماء كلها بعد مجهودٍ شـاقٍ، ثُمَّ غادر المـكان بِصُحبة: (رأفت)، الذي أحضر له سـيارة أُجرة خاصة، وجلس بجـواره في المقعد الخلفي، وأخذا يتهامسـان، أما سُـكَّان الغرف فكلٌ منهم عاد إلى غرفته؛ وهم جميعا يمنون النفس بقرب تحقُّق الحُلم.

# الفصلُ الأَول

ترتكب الحكومات الجريمة غير اللائقة في حق شعوبها، تحت مسميات لائقة، ويرتكب الآباء الفقراء الجرائم نفسها؛ لكن تحت مُسمى القدَر والنَّصيب.

# (1)

انفضَّ المريدون من الطواف حول الضريح في الليلة الكبيرة لمولد سيدي إسماعيل الإمبابي، وتنتهي مع نهايتها غايتي من الجلوس أمام المسجد، أتحسس جدران شوارع مدينتي، وأزقَّتها؛ فتعرقلني سنوات اليأس والندم دون رحمة، بقدمٍ مرتعشة أنزل إلى دَرَج السُّلم؛ فهويتُ داخل الممر بين الغرف التي أسكن إحداها، ظللت راقدًا أتحسس النقود في جيبي، أخشى فُقدانها، أنامل ناعمة تمسح دموعي، تمسك بي من معصمي؛ لتعينني على الوقوف، مُستسلمًا لها كما استسلمت لِعلّتي، تشاركني البكاء؛ فأحتضنها بشدة، وكم لثمْتُ شفتَيْها منذ سنوات! عاتبًا عليها: كيف تتركني هنا وحدي؟ تعتذر لي، وتؤكد أنها لن تتركني بعد اليوم، كأننا حبيبان تفرَّق كلٌ مِنَّا مُرغمًا عن صاحبه، ولملمَتْ أصابع القدر بقايانا.

أمسكتُ ببطاقة الرقم القومي، التي تفوح منها رائحة سنوات عمري المنقضية، وتاريخ يوم مولدي الذي كُتب على الجهتين، وهو عمرٌ انقضت سنواته، تحمل لي ذكرياتٍ كثيرة؛ لِنَعود معًا لهذه الصفحات، نُقلِّبها صفحةً صفحةً، وسطرًا سطرًا.

* * *

احتفاليـة الشـيخ "إسـماعيل الإمبابـي" لا تتبع التقويم الإسـلامي، تُقام في العاشـر من شـهر "بؤونـة"، وهو التاريخ الـذي كان المصريون القدمـاء، ينتظـرون فيـه الدمعـة الغامضـة "لإيزيـس"؛ حزنًـا علـى "أوزوريـس"، وتُسـمى الليلة الأخيرة مـن الاحتفالية بليلـة (النقطة)، يذهب الناس بعضهم للتبـرُّك والدعاء، والبعض الآخر لمآرب أُخرى، مِثل: الشّحاذة، أو السرقة، منذ أكثر من عقدٍ من الزمن وأنا مواظبٌ على حضورها، وأردد مثل مريدي الشـيخ مُتخـذي الضريح قبْلتهم، رافعين أكف الضراعة، وهم خُشُعُ الطرف:

- "شي لله يا سيدي إسماعين يا إمبابي".

الضريـح المكسـو بقمـاش أخضر، وعلـى كل جانب رقعة سـوداء مُزخرفـة بآيـة قرآنيـة باللـون الذهبـي، تُعلـق فـي كل زاوية مـن المقام مِسـبحة خشـبية كبيرة، مكتوبـا على كل حبةٍ منها اسـمٌ من أسـماء الله الحُسـنى، وحـول المقام سـورٌ حديـديٌ قصيـر؛ لحمايته، وعـن يمينه صنـدوقٌ؛ للنذور، وهو مُثبَّت بالسـور من الداخـل، وله فتحة خارجية؛ لوضع النقود من خلالها، كأن مَن وضعه يحثُّ على زيادة المتصدقين، وأسـماء الخلفـاء الراشـدين الأربعـة مُوزَّعة علـى أركان القُبة، أشـعر داخل المسـجد بالطمأنينة، وعند الخروج أشمئز من الشحَّاذين، الذين يجلسون عند باب المسجد؛ وقد تفننوا في إبراز عاهاتهم.

سمعتُ والدي يبكي، ويمسح مُخاط أنفه في (كُمّ جِلبَابه)، ويتضرع بأن يَشفي الله سُقمه، ويُوسِّع له في الرزق، ظل الرجاء موصولًا لأجسادٍ

لا يسـمعون لتوسِّل والدي، الذي قرر أن يعبر جبل قريتنا في شتاء ألف وتسـعمائة وثمانية وثمانين من القرن الماضي، وشدَّ رحاله إلى القاهرة الكُبرَى، في منطقة إمبابة، واستقرَّ بنا المقام، حملت معي -بين أشيائي المتكدسـة- الشـهادة الإعدادية، التي حصلت عليها بمجموعٍ عالٍ من مدرسة الحاجر بقريتي، وأخبرني بأنني سوف أُكمل بقية مراحل تعليمي فـي القاهرة، وينتظر والـدي أن أُحقق له نصف أُمنياته في الدنيا، بعد أن خـاب رجاؤه في النصـف الأول، ألَا وهو أخي "محـروس" الذي ترك المدرسـة عِندًا، ووُضعَت الشـهادة داخل حقيبة جلديـة، ومعها أحلام المسـتقبل، المسـتقبل الذي سـمعت نداءه لي عن طريق عجلات قطار الصعيد التي تَحْتَكُّ بالقضبان الحديدية، كأنها معزوفةٌ موسـيقية تعزفها أنامل الطبيعة، غير المُرتبطة بالسُّلم الموسيقيّ، سمعت يوما وأنا صغير من مُدرسـي: أنَّ الأحـلام الجميلة المُمتزجة بالتفـاؤل، هي الدافع لنا؛ لمُواصلـة الحيـاة. مرَّ اثنا عشـر عامًـا بالمدينـة الكبيرة، والثالثَ عشـرَ شارفَ على الانتهاء، وكُلَّ يومٍ أسمع صوت صفير قِطار "المناشي" فى محطة إمبابة، لمْ أبرح هذا المكان إلا ليلًا، أتنقل بين جزيرة الإمبابي إلى مدينتَي: العُمَّال، والتحرير، ومنهما إلى شارع الجامع، ومنطقة المُنيرة، ثم ينتهي بي المطاف ليلا إلى أرض عزيز عزت باشـا، وعزيز باشـا، هو رجل الرياضة والسياسـة، فهو أول سفير لمصر لدى المملكة المتحدة، ووزير للخارجية، وأول رئيس مصري للنادي الأهلي، وبالرغم من ثراء اسم صاحب المنطقة؛ فلم يكُنْ لها حظ منه.

المساكن المؤقتة: ترتكب الحكومات الجريمة غير اللائقة في حق شعوبها، تحت مُسمَّيات لائقة، ويرتكب الآباء الفقراء أيضًا الجرائم نفسها، لكن تحت مُسمَى القدر والنصيب، والجريمة الكبرى هي (بَدرُومَات) المساكن، كانت غُرفًا صغيرة تحت الأرض، وتُفتح أبوابها على ممرٍ ضيقٍ، تُشبه جُحور الفِئران، تُفتح أبوابها على ممرٍ ضيقٍ، ومنذُ منتصف الثمانينيات من القرن الماضي كانت تستخدم كمخازن، ولكن اسْتخدمتها المُحافظة، كإيواءٍ مؤقت لسُكان أيّ منزلٍ آيل للسقوط، أو لتهجير بعض الأُسر، التى تقطن بجوار شريط السكة الحديد، وبعد زلزال سنة ألف وتسعمائة واثنتين وتسعين، ازداد عدد سكان الأُسر التي أُويَت.

كان انتظار الدور؛ لكي أغتسل يزيد من عناء البقاء داخل هذه الغُرف اللعينة؛ لأن الحَمَّام الوحيد المشترك بين عدد من الغُرف، يقصده سربٌ غير منقطع من البشر، وفي جوف الليل يكون للنساء النصيب الأكبر، وأحيانًا تجد المكان خاليًا إلا من ثلاث أُسر فقط؛ لأن سكان بعض الغُرف لا يستطيعون الاستمرار؛ فمنهم مَن يفر هاربًا إلى مأوى جديد، وبعضهم يعود في المواسم والأعياد إلى بلادهم، مِثل: جماعة (السرِّيحة).

الحَمَّام عُمِلَ بمجهود ذاتي مِن قاطني الغرف، أمامه صُنبور يرتفع أنبوبه الحديدي مترًا عن الأرض الخرسانية، وتجلس أمامه النِّسوة يغسلنَ الملابس وأدوات المطبخ، يثرثرنَ بأسرارهنَّ وآلامهنَّ، وأحيانًا يُظهرنَ سخافتهنَّ، وحماقتهنَّ التي لا تنقطع، ويُقسِّمنَ أيام الأسبوع عليهنَّ؛ بحيث يكون لكل أُسرتين يومان غير متعاقبين، ودائمًا كان يوم

والدتي مع أُمِّ سامية صديقتها، كان يحلو لى وأنا صغير، التلصص عليهن من خلال ثقوب باب هذا الحمَّام، متطلعًا لعورات البنات، والنساء؛ جسدٌ بضٌّ، أو جلد مُجعد شقَّ الزمان خطوط اليأس عليه، وينتهى بي التلصص بأن أُضرب ضربًا مبرحًا من والدتي، والتي لم تستطع الإمساك بأخي محروس صاحب الفكرة، والذي ولَّى ضاحكًا مازحًا هاربًا ضاربًا بالأعراف كلها عرض الحائط، وظلَّ على حاله يهرب من كل شيء.

ومنذ أن قدمت من هذه القرية البعيدة، التي تناساها "محمد الإدريسي"، عندما رسم خريطة العالم؛ قرية تتراشق بيوتها مثل: الحصى المنثور، وخلف الجبل الشامخ -في غرب النيل من صعيد مصر- بيوت معظمها عشش من حَطب الذُّرة الجافة، ومكسوَّة بطمي النيل، وأُخرى بالطوب اللَّبِن، تغطيها طبقة من قشِّ نباتات البُوص، أو سعف النخيل، ويتخلل تلك البيوت شجر النخيل، الذي تسقط منه في شهر "أمشير" كل عام واحدة، وأحيانًا أكثر؛ لتهدم أحد البيوت، ولا يستطيع أهل القرية تقطيع النخيل، أو قلعها؛ لأنه مصدر رزقها، وقد توارثوا أن عملية الاجتثاث نذير شُؤم، كما حرَّمها السابقون، وضاق بوالدي العيش، فلمْ تَعُد صحته تُعِينه على العمل أجيرًا باليومية، فأخذ ثمن إرثه في البيت ثلاثة آلاف جنيهٍ من أخيه، فقد ضاق بنا البيت وبأولاد عَمِّي الذين يشاركوننا المضاجع.

في ليلة باردة، لمْ يستطع والدي حملي على كَتفه كما تعوَّد منذ سنوات، أجلسنى على فخذَيْه داخل سيارات الأُجرة؛ حتى لا يدفع

لـي قيمة التذكرة، ويتأبط أخـي محروس ذراع أُمي، ووصلنا إلى محطة القطار في ظلام الليل، وضع والدي عنه جوالًا، به بعضٌ من الملابس، وأخى يحمل حقيبة بها ما بقي من ملابسنا، وهى ليست بكثيرة، تحتفظ أُمـي بهذا (الطِّشْـت النُّحاسـيّ)، وتضع بـه صُرّة من القماش مشـدودةً أطرافها، ولا أعلم ما في داخلها؛ لكنني أظنُّ أنَّ به بعض أواني مطبخها؛ لأن مـع كل حركة كنتُ أسـمع صَليلها، كأننا غربـاء ودَّعنا بعضنا بعضًا بمشـاعر باردة؛ ورأيتُ فـي أعين أولاد العَم وداعًا ثلجيًّا، ومشـاعر من التشفي، سـوف يخلو لهم المَضجع الذي تشاجرنا عليه كثيرًا، وسعادة كبيرة في عين زوجة عَمِّي عندما حملنا أمتعتنا، ومازلت أستشعر برودة تلـك الليلـة الضبابيـة، وكأنها صـورة محفـورة داخل عقلـي، أتذكرها أوقات الانكسار.

مزقـت كتاب أحـلام الصِّبا داخـل القريـة؛ لأكتب كتابًـا جديدًا في مدينة جديـدة، وَلَجْناها من الأبواب الخلفية، مثل كثيرين، كانت أشـبه بعالم جديد أكتشـفه بعيونٍ بريئة، لم تتجاوز عامها الخامس عشـر، ولا تعـرف عـن القاهرة الكُبرى شـيئًا غير ما شـاهدته على تلفـاز الجيران، الذيـن كنتُ أذهب إليهم؛ كي أشـاهد فيلم الظهيرة يـوم الخميس وكلَّ خميسٍ، المنتج السينمائي الذى أشاهده عن القاهرة، يحفر داخل عقلي شـيئًا عظيمًا، وجـاءت عظمته من خيال بَنَيْتُه، وجعلتُ من نفسـي بطلًا للأفـلام كلهـا، وحلمت أن أكون يومًـا ما بطلًا في الواقـع، وليس على شاشات الصور المُتحركة، ومنحني ذكائي الفطري التفوق على أَتْرابي.

المبالغة التي حملتها معي داخل حقيبة أحلامي الجديدة، ظلَّت هي الدافع والسلوان أثناء عامين قضيتهما بمدرسة الاستقلال الثانوية العسكرية للبنين بمدينة إمبابة؛ لكن هذه الأحلام ماتت، بمجرد أن تسللَتْ أصابع الموت إلى غُرفتنا، فقد مات والدي ولم تُستجَب دعوته، ولم يتغير شيءٌ ممَّا كُتب في اللوح، عاش مريضًا، ومات فقيرًا، ليترُكَنَا طفلين، وامرأة دون عائلٍ.

❊ ❊ ❊

# (2)

مـرَّ أسـبوع على رحيل والـدي؛ إثر مـرض أصاب كَبِـده، ولم نجد مـا نقتـاتُ به، وصُرفَت النقـود التي ادَّخرها على مرضه، ولُحد جسـده فـي مدافن الصدقة صبيحة يـوم الجمعة، قررتُ أن أحمل إرث والدي، والإرث كان صندوقًا خشبيًّا مستطيلًا يُفتح من المقدمة، تُوضع به أشياء كثيرة مختلفة الألوان، ومعظمها باللون الأسود، وحلمتُ كثيرًا أن يكون مملوءًا بالذهب، أو الأوراق النقدية؛ لكنه في الواقع هو صندوقٌ لمسح الأحذية، وبه فرشـتان، واحدة للأحذية السـوداء، وأخرى للبُنيَّة، ومادة التلميـع، ودِهانـات، وبعض (خِرقَـات) من القماش المصبوغـة (بِبُويَا الأحذية)، وتُسـتخدم للتلميع، وكرسيّ خشبيّ صغير أجلس عليه دائمًا أثناء العمل.

يوم الجمعة هو سـوقٌ أسـبوعي، تمتلئ الشـوارع فيه بباعة جائلين، يفترشـون الأرض من نفق المنيـرة مرورًا بمدينة العُمَّال، وحتى شـارع الجامع المزدحم دائمًا، والشـوارع كلها مُتكدِّسة بهؤلاء الباعة، يبيعون أشـياء جديدة، وقديمة، ومسـروقة، ولكلِّ بضاعةٍ مُشـترٍ، ولكلِّ سـلعةٍ متفرجـون، والبائعـون يجهرون على بضاعتهم، ويشـحذون الرزق من الناس الذين يزاحمون بعضهم بعضًا، وأكثر الزائرين لا يملكون مالًا.

أحـبُّ البقاع إلى الله مسـاجدها، وأبغض البقاع إلى الله أسـواقها، وبيـن مـا يُحبه اللـه ويبُغضه ظللـتُ أتنقل فـي حيرة من أمـري، حاملا صندوقـي مـن حَمّالتـه، تاركا إيـاه يتأرجـح بفعل حركة جسـدي، كما يتأرجح في رأسي حُلم يراودني كثيرًا عن عظماء مارسوا المِهنة، أبحث عـن القدوة، وأتخيل صـورة المُلاكم العالمي "مايك تايسـون"، أمامي فـي كل خطـوة أَخطُوها، قـدوة تدفعني للمواصلة، وتذكرت الأسـتاذ: محمد شـاعر المدرسـة، القدوة الأُولى لي في القريـة، عندما ربَت بيده على كتفي مُرددًا بيت قصيدٍ أحفظه إلى الآن، كما حفظت عنه كثيرا من أشـعاره، ويراني دائمًـا طفلًا متميزًا، ويكثر من الحـوار معي حول كثير من الأمور، وينشد بيت قصيد يمنحه الحماسة مبتسمًا:

**ومـا نَيْـلُ المَطالـبِ بالتَّمَنِّـي ولكـنْ تُؤخـذُ الدّنيـا غِلابَـا**

مـررتُ بمسـجد سـيدي إسـماعيل الإمبابـي، وعندمـا رآني بعض أصحـاب المحلات، مِنهم مَن ترحَّم علـى والدي، ومنحني –رحمته– حـذاءه؛ لكـي أُلمِّعه، وآخر أشـاح بوجهـه، وكانت أصابع يـديّ بيضاء مثل: وجهي الذي شـقَّته الحُمرة قليلًا، وبتلك الأنامل المُرتعشة بدأت أُلمِّـع إحـدى الأحذية؛ فوضعـت مُلمِّعًا قبـل تنظيف الحـذاء جيدًا من الأتربـة العالقـة به، أسـمع كلمات اللوم مـن صاحبه الـذي انتعله على مَضَـض، وتركته دون أن أقوم بعملي كامـلًا، وحملتُ صُندوقي أقبض بيميني على ورقة نقدية فئة ربع جنيه، لكنها صدقة، وليسَـت أَجر عمل. وبدأ اليأس يتسرب إلى قلبي، لكن والدتي الجائعة، وتلك النقود –التي

تمنيت بأن تكون معي غدًا عند الذهاب للمدرسة- تجعلني أواصل تكرار التجرِبة مرة أخرى؛ فالتعلُّم من الأخطاء السابقة يمنحني القوة والأمل؛ للوصول إلى مُرادي، ويقيني أنَّه كلما زادت مرات الفشل اقتربت فُرص النَّجاح.

مرت ساعات حتى نجحتُ في تلميع عدد من الأحذية، وانفضَّ سُوق الجُمعة، وحلَّ الليل ضيفًا، لم يكُن ثقيلًا بمقدار التعب الذي يداهمني، وتمنيتُ فراشي الخشن؛ لأُلقِي عليه جسدي النحيل، تحسست جيب جلبابي، وعددتُ النقود فوجدتُها خمسة جنيهات حصيلة يوم الجمعة، حملتُ معي طعامًا لوالدتي، أسير مُغْتَبطًا برزقي الوفير، والدتي تصرخ أمام غرفتنا! نشبَ شِجار مع جارتنا أُمِّ سامية، التي جمعت ملابسنا من على حبل الغسيل بالمَمر، الذي تشترك فيه الأُسر كلها؛ لنشر الملابس بالتناوُب، فجمعتُها لأُمي قبل أن تجف؛ فسقط بِنطالي الوحيد على الأرض الطينية، وَوطأت عليه بقدمها بدون قصدٍ، أو بقصدٍ، لكن النهاية أنني لا أستطيع الذهاب إلي المدرسة غدًا يوم السبت.

تناولنا عشاءنا، تتناول أُمي لُقيماتٍ بطعم الحِرمان، فأسألها عن أخي محروس، فتتنهد بسخطٍ: ذهب مع أصدقائه من أرباب السوابق، وتجده واقفًا في موقف السيارات يعمل مناديًا على سيارة أجرة: (المنيرة – الجيزة)، وكان هدف محروس أخي منذ الصغر أن يتعلم قيادة السيارة، بعد أن ترك المدرسة، وقبل رحيلنا عن البلدة، ونحن

صغـار كنـت أمنحـه دومًـا دور اللـص سـائق السـيارة، الـذي تطارده الشـرطة، وكان يؤديه بإتقـان بين أتْرابه، بل أحيانًا يفاجئنا بشـيءٍ جديدٍ عمَّا شاهدناه في السينما، يبدو أن الأطفال أوسع خيالًا من الكِبار.

غـدًا هو يوم السـبت، فقررتُ ألَّا أذهب إلى المدرسـة، وأواصل ما بدأت اليوم، ومرَّت تلك الليلة البعيدة في الزمن، والقريبة في الذكرى؛ لأنها أول ليلةٍ أعمل فيها (بويجيًّا)، وبغُرفتي الضيقة التي تشـبه الحفرة، فأنزل إليها سـت عشـرة درجة، ثم صارت سـبع عشرة، وظلت تزيد مع ارتفـاع مسـتوى الأرض، وانخفـاض (البَـدرُوم) بما فيه مـن أحلامي، وتعلـو حوائـط غُرفتنا شـرفة مسـتطيلة، وتتسـاوى مع أرض الشـارع، وعليها قضبان حديدية تكسـوها شبكة من السلك الرفيع؛ لمرور الهواء وضـوء النهار، واليوم تمرُّ منها رياح بـاردة، تحمل نظرات متلصصين، كمـا تحمـل أتربة من أقـدام العابرين، فكسـاها والدي بطبقـة من ورق الكرتون المُقوَّى، ولا يوجد للغُرفة إلا منفذٌ وحيد، وهو الباب المفتوح علـى المَمرِّ؛ لجلب الهواء الفاسـد الرَّاكد، المُحمَّـل برائحة أطعمة، أو (بُـراز)، أو (صنان بـول)، ودخان السـجائر. وتطلُّ علـى الممر أبواب كثيرة، وكل غُرفة بها أُسـرة كاملة إلا واحدة خالية من السـكان، ومقفلٌ بابها بقُفلٍ حديديّ كبير قد أكلَه الصَّدأ، وسُميَت "أوضة العفاريت".

فتلك الغُرفة مُغلقة منذ أن قَدِمنا، وسـمعتُ عنها كثيرًا من أُمِّ سامية، فهي تسـمع فيها ليلًا صوتًا، وبدون مبالغة رأت ذات ليلة من الليالي بها مصباحًا مشتعلًا، ووقْع أقدام لشخصٍ يخطو، وصوت همهمةٍ بداخلها،

وتمثل لي ولهم جميعًا غموضًا كبيرًا؛ فكلما مررت أمامها ليلًا اقشعرَّ بدني، ومِصباح الحمَّام لا ينطفئ ليلًا، أو نهارًا، وتسمع أذناي قرع نِعال النِّساء وهن فى غُرفهنَّ إلى صوت خرير الماء وهن يستحممن، ووصل الأمر بي إلى سماع أصواتهن أثناء لقاءاتهن الحميمية مع أزواجهن، وكنت أظن أنه العقل الباطن، ولكن تأكدت أنه يمكن أن تتحول أحلام العقل الباطن إلى واقع، ولمْ تَعُد تثير اشمِئزازي، رائحة رغوة الصابون رخيص الثمن، التى كانت تزكُم أَنفِي، وقد اختلطت برائحة مياه الصرف الصحي، لقد دفع والدي قبل مماته قرابة الثلاثمائة جنيه خلو رِجْل مقابل هذه الحُجرة، التي يستأجرها صاحبها من المحافظة بخمسة جنيهاتٍ، وظل يؤجرها لنا بمبلغ خمسين جنيهًا من الباطن، بها سريران، ووابور جاز (بريموس) ذو لَونٍ ذهبي، ومرتبتان، وبعض الوسائد المُتهالكة، وظلت الغُرفة تحمل اسم الرجل في الأوراق الرسمية حتى مات؛ فصارت لنا بوضع اليَد.

ظللت طوال ليلة السبت الشتوية أتدبر أحلامي، مُستسلمًا لهذه الظنون السرمديَّة، التي تُسمعني صوت طَنين داخل أُذني، كصوت خدشٍ خفيفة بباب غُرفتنا، جاء أخي محروس مُتسلِلًا في الثانية بعد منتصف الليل، وصار على أطراف أصابعه في حذرٍ شديد، على الرغم من تصرفاته غير المسؤولة؛ فإنه لا يزال يخاف أُمَّه، التي ترقد كالذئب تخاف على صغارها، يُخرج من جيب سِرواله الداخلي لُفافة، قد وضعها تحت رأسه، واضَّجع بجواري على سريرنا المشترك، ويحرص محروس دائمًا على أن يكون لسراويله الداخلية جَيبًا كأنه

مُهـرّب، ورائحـة الدخـان التي تفوح مـن فَمه تـكاد تصيبنـي بالغثيان، استدرت تجاه الحائط، فهمس لي بحَذرٍ؛ لكن تكسوه السخرية:

– ماذا فعلت اليوم بإرث والدك الثمين أيها الطَّيب؟

يناديني دومًـا بالطَّيـب، فقد أعلـن أخي الوحيـد تمرده علـى فقرنا مُبكـرًا، ويفعـل ما يحلو لـه دون النظر للعقاب، فتعـب والدي من كثرة عقابـه، كأنه يتحدى الدنيـا كلها، ولا يرى إلا رغبته؛ فيلهث خلفها دون أي حسـبان لأي شـيء، مثلما قيَّده بالقرية يومين عندما ترك المدرسـة، وضربـه بالعصا عندما شـرب السـجائر، وجعـل فَمه ينـزف الدماء من كثـرة الضرب المُبرح لأنه تحرَّش بإحـدى بنات قريتنا، وعندما حضرنا للقاهرة تركه يفعل ما يريد؛ لأنه ابنٌ لا رجاء منه، فسمعتُها من أَبي دومًا عندما تُحفِّزه أُمِّي أن يكون ذا بأسٍ شديدٍ عليه، ولا يترك له الحبل على الغـارب، لكـن صحته وعمله لم يسـعفاه؛ فاستسـلم لعقـوق أخي كما استسلم بعدها للموت، وهمهمتُ بعد أن استدرتُ بجسدي على جنبي الأيمن مُعطيًا ظهري له بصوت مُختنِق:

– الحمد لله يا مَحروس.

ضحـك كثيـرًا بصوت منخفـض، ولا أعلم هل يسـخر مني، أم كان هـذا من أثر مـا يتعاطاه، ويفوح منه، نام على جانبه الأيسـر مُعطيًا ظهره لـي، كأننا زوجان متخاصمان، ويحاول أن يُغْرِيني بأن أعمل معه مناديًا على سـيارة أُجرة؛ ولأنه لا يكسـب كثيرًا من عمله هذا، وينفق جله فى شـراء سـجائره، وما يقتات بـه، لم يكن يسـاهم في دفع إيجـار الغُرفة،

والمساعدة في المعيشة، وظل محروس يواصل هذيانه: سوف يتعلم القيادة، ويصبح هو (الأُسطى)، وليس التابع، وعندما يجلس خلف عجلة المقود سوف ينقلب الحال للأفضل، ونشتري شقة خاصة بنا، ويواصل ادخاره، حتى يبتاع سيارة أُجرة، وختم حديثه ضاحكًا أنه سوف يعلمني عليها القيادة دون مقابل، أغمضتُ عينيَّ متجاهلًا أحلام أخي، كما تجاهل هو حالنا.

غدًا السبت، كيف سأبدأ؟ وكيف سأتعامل مع زبائني؟ بوجهٍ بشوش، أم بما يحمله صدري من كربٍ عظيم خلَّفه بِنطالي الوحيد الذي سقط على الأرض الموحلة؟ الأفضل أن أكون كذبيحةٍ لا تعلم أين يقودها المُمسِك بالرَّسَن، أغمضت عينيَّ ثم أستيقظ على صوت أُمِّي، قرأتُ في عينيها رجاءً مفقودًا، من جراء إصراري على حمل الصُندوق للعمل، وعدم الذهاب للمدرسة.

# (3)

حالة مـن الضوضاء خارج الحُجرة، وأصـوات لرجالٍ وأطفالٍ قبل شـروق الشـمس، "يبدو أن هؤلاء السرِّيحة عادوا من سـفرهم". قالتها أُمِّـي وهـي تحمل لـي كوبًا من الشـاي، مع بعـضٍ سندوتشـات الجبنة القرِيـش، أعـدُّ صندوقي للذهـاب للعمل، وخمس غُـرف كانت مغلقة منذُ أسبوع تقريبًا، وحملت كل أسرة أَمتعتها، وشاركَت بقية الغُرف في اقتسام الصدقات، وعادت إلى بلدتها؛ لتقضي أيام إجازتها.

الريـس عبـد الحكيـم كبير السـرِّيحة رجـل (زيَّـاط)؛ فدائمًا يبحث عـن خميـس ابنه؛ لكي يذهب معه للعمل، طلبـت منه زوجته أن يتركه؛ ليسـتريح من عناء السـفر، ففقدَ الرجل الأمل إثـر كلمات زوجته، كظم غيظه وتمخط أثناء وقوفه بالممر، يرتب بعض حوائجه، ممسكا بطرف ثوبـه، ويرفعه عن الأرض؛ ليجفف العرق المُتسـاقِط من جَبينه، صدى صوته يُقلق الغُرف كلها، ينهر زوجته بشـدة، ويسـبُّ ابنه: "خليه جنبك الحيلة والذخيرة، لعنة الله عليكِ يا بِنت الـ...". فتهز أُمي رأسها مُتبرمة ممَّا سمعت، ونواصل تناول الطعام في صمت.

* * *

هؤلاء القـوم كانوا يأتون من قريةٍ واحـدة، وكذلك عندما يرحلون، أو يعـودون لا يتحركـون إلا مجتمعيـن كجَماعـة، والرحيـل يكون في

الأعيـاد، أو المناسـبات الشـخصية، مثل: حالات الـزواج، أو الموت، يعملون مع القبطي ناصر شـكر الله، يتشـابهون في كل شيء: لَهجتهم، وطريقـة اللِّبـاس، وأظـنُّ تربطهـم صِلة قرابة، منذ سـنوات أتـى أولهم الرَّيِـس عبد الحكيم كما يطلقون عليه، ولا أعلم سـر الرئاسـة، يتسـلم كل فـرد منهـم عربـة "كارو" ذات عجلتين يجرُّها حِمـار، ويقبض مبلغ خمسـين جنيهًا، ويخرج في طلب الرزق ويعود فـي نهاية يومه، يحمل كثيـرًا مـن بقايا الأشـياء المتهالكـة (روبابيكيـا)، من حديـدٍ، ونُحاسٍ، وبلاسـتيك، وتَزن هذه الأشـياء كل صنف وحده، ولكل صنف سِعره، يحاسـب عليـه من مبلغ الخمسـين جنيهًـا، يضعون رزقهـم في جيوب جلابيبهم، ويعودون إلى الغُرف يثيرون الضوضاء، يتناولون عشـاءهم، ثُمَّ يذهبون إلى المَقهى، وهذه هي حياة السَّريحة.

مهنـة البحث عن الأشـياء القديمـة، أو الروبابيكيا هـي عمل مَن لا عمـل له، وقد حاولت أنا ووالـدي من بعده أن نعمل بهذه المِهنة؛ لكنَّنا لم نسـتطع، وتأسَّـف والدي على البيـوت التي لم تمنحه شـرف حمل رمائـم أشـيائها، واصطحبني معه أمسـك به من طرف جلبابـه إلى بيت ناصر شـكر الله، الرجل الهادئ الوسـيم في العقـد الخامس من عمره، تركتهما يكملان حديثهما، أقلب بصري داخل بيته الذي يُشبه المتحف؛ لوجـود بعض (النياشـين، ولوحات الحـارات القديمـة)، وصور نادرة لشوارع العاصمة منذُ أيام حُكم أسرة مُحمَّد عليّ لمِصر، وصور أخرى كبيـرة لوجـوه ملوك وباشـوات، علـى رؤوسـهم طرابيـش، فضلًا عن صينيات نُحاسـيَّة مُزخرفة، كانت تُسـتخدم في بيوت الباشوات الأتراك

واليونانيين، وهذه الأشياء كلها قد ورثها عن والده، كما ورث عنه تلك المهنة، والمَحل، والسُّمعة الطيبة، ومشتري الأشياء القديمة دومًا رابح، وما شاهدته من نعمة يرفل فيها هؤلاء القوم السرِّيحة، جعلني أصدق أن بقايا الأغنياء تُغني الفقراء؛ فالعمل بها يحتاج إلى حنجرة قوية، وصبر على المشقة؛ فمنهم مَن يسرح بعربة بقوة الدفع، وأخرى يجرها حمار، وازداد عدد الأطفال داخل الممر بعودة السرِّيحة، فصاروا يقضون فيه حاجتهم، فضلا عن ضجيجهم الذى لا ينقطع.

* * *

قبل أن انتهي من تناول وجبة الإفطار؛ سمعنا أنا ووالدتي صوت شِجار أُمٍّ سامية مع نساء السرِّيحة؛ فقد وطأت بقدمَيْها على فضلات طفل داخل الممر، وانطلق صوتها الجهور بالشتائم في أطفال وأمهات لا يُحسنَّ تربية أولادهنَّ: "خرا عليكم وعلى أُمهاتكم".

تمسح أخمص يمينها في السلالم المؤدية للحمَّام، وتواصل غضبها أن الغرف كانت في راحة تامة أثناء سفركم. الرَّيس عبد الحكيم الذي لم يغضبه كلام المرأة عنه وعن جماعته السرِّيحة، بل أنساه تقاعُس خميس عن العمل، فيمازحها: "وعلى رأس أبوهم كمان، ولا يهمك يا سِت الكُل".

اقترب من المرأة ينحني ثم يمسك طرف ثوبها، ويرفعه؛ ليكشف عن جزءٍ من ساقيها، ويطلب منها رؤية مكان توحل قدمَيْها، فتلومه بكلماتٍ تحمل اللوم والمزاح، بعد أن ذهب غضبها، فنبتسم أنا وأمي كما تبسَّمَت

أُمّ سامية، وهي تواصل خطواتها صوب الحمَّام؛ لتغسل قدميها.

صافحني الريس عبد الحكيم باهتمام شديد حِين خروجه من الممر إلى الشارع، فهنأته على عودته، وقدَّم لي العزاء في وفاة والدي، ومدَّ يده يضعها في جيب جلبابه، حركة تعودنا عليها جميعًا، فسخاؤه يُشبه بيت العنكبوت زائط بقسم غليظ: إن كنت أريد شيئًا، فلا أخجل منه، وأقسم عليَّ مرة أخرى أن أحسبه من الآن في مكانة والدي، فهززتُ رأسي، وحملت صُندوقي بعد أن شكرت كبير السرِّيحة.

صعدت سُلم الممر؛ قاصدًا الشارع العمومي بعد مبنى المحكمة، ومررت بتلك الأشجار العتيقة التي تسكنها العصافير، تُسمعني أجمل ألحان الطبيعة، ولا تزال صورة المُلاكِم العالَمِي تغازل أحلامي، جلستُ في الصباح مُبكرًا بعد محطة جَراج أتوبيسات هيئة النقل العام بشارع مصر والسودان، بعد أن مررت بمدرستي، وهذا المكان يمرُّ منه كل مَن قصد شارعَيّ: الهَرم، وفِيصل، ومناطق: الدُّقي، والمهندسين، والجيزة؛ مما جعلني أُغيِّر وِجهتي عن المنيرة، ومسجد سيدي إسماعيل، وهو التحدي الكبير الذي وُلِد بداخلي ليلة أمسِ، وخير الحلول: المواجهة.

المكان الجديد الذي قصدته هو الطريق الوحيد لمدرستي، ولا أدري أَهُوَ قرار حكيم، أم قرار غير صائبٍ، لكن يبدو فيه شيء من الحماقة، وعندما اقترب مني "ياسر المنزلاوي" زميلي الأكثر حماقة من قراري؛ بعينين تملؤهما الشماتة، وجاء يتسكع، ومعه بعض من الطَّلَبة، ومنذ أول يوم في المدرسة نفرت من سلوكه الحاد، كما تنفر

الشاة عند رؤية الذئب، فقد بدت عليه الكراهية؛ لعلمه بعلاقتي بنرجس إبراهيم ابنة خالته، التي رآها تبتسم لي، ووجدنا نتحدث معًا في غفلةٍ من الناس جميعًا، ويشيع بين أصحابه أنه شِبه مُرتبط بها، وأنها تُحبه، والعائلة كلها تبارك هذا الارتباط، كذَّبت هي خُزَعْبلات ياسر في لقاء عاطفي بيننا، فيسخر مني على مسمعٍ ومرأى، كيف لهذا الصعيدي "الجَلَنف" أن يفوز بقلبها؟

اقترب يمدُّ لي قدمه، ويطلب أن أُلَمِّع حذاءه، فرفضتُ، فتمادى في سخريته، فلمْ أستطع التحمُّل، فوثب كلٌ مِنَّا على الآخر مثل: ديكَين متصارعين، وعُدت إلى البيت، وجلباب والدي الفضْفَاض مُمزَق، ينزف وجهي دما وتحطَّم جزء كبير من صُندوقي، تحتضنني أُمِّي وتبكي، وتطلب عدم الذهاب لهذا العمل مرة أخرى، وأنها وجدت لنفسها عملا كخادمة في أحد البيوت، نزلت عليَّ كلمات أُمِّي كسياط تلهب ظهرى، ليس لها من دواء إلا الاستمرار فى العمل أمسح الأحذية، جلست ليلتها على قِمة سُلم المدخل، أراقب الشارع، تتلقفني أنياب الخوف من المجهول الذي يطاردني كظِلِّي، أنتقل ببصري إلى داخل الممر، بنظرة جوفاء إلى بقايا الأشياء التي جُمِعت في نهار اليوم، وقد تعثرت قدمي فيها عند مرورى أمام غُرف القرويين السرِّيحة؛ ولأنها قيِّمة قرروا الاحتفاظ بها لأنفسهم دون عِلم الرجل، يبدو أنهم سلكوا سلوك ناصر شكر الله، مع أشيائه القيِّمة التي يمتلئ بها بيته، كان بالممر مروحة قديمة وتلفاز أبيض وأسود، وبعض المعدات التي من الممكن أن يعاد تشغيلها وإن كان بعضها يعمل.

شـردت بالذهـن، الذي أصبـح مثل سـاعة حائط فرغـتْ بطاريتها؛ فتوقفـت عقاربها عـن الدوران، تؤلمني مؤخرتي أتململ في جلسـتي، أمسح مُخاط أَنفي بكُمّ جلبابٍ آخر من جلاليب والدي الذي بدا واسعًا بعض الشـيء عليَّ، وقصَّرتـه وضيَّقت أَطرافه أُمِّـي، وارتديته؛ لأن كُلَّ مَن يعمل ماسـح أحذيـة يرتدي جلبابًا، واتسـعت دائـرة ذكرياتي مثل: جلبابي؛ فظللتُ أسـيرًا لاجترار الماضي، تركض نحوي سامية جارتنا، أو الدكتورة: سامية كما يُلقبها نساء الغرف، أسمع صوتها الجميل وهي تكبرني بخمس سنوات:

– مساء الخير يا حارس.

تنهـدت؛ أتطلـع لوجههـا ذي الجمـال الُمصطنـع مـن هـذا الطِّلاء الذي كسا بشـرتها، وتتفنن في وضع أدوات التجميل، أعرف تضاريس جسدها الممشوق كله، وعانتها التي تداوم على حلاقتها، أو نتفها على الرغـم من عـدم زواجهـا، وكُنت أنا ومحـروس نعرف موعـد حمَّامها اليومـي، فكانـت ترتدي عباءة سـوداء، وبيدها أكياس من البلاسـتيك، واحـد به رائحة لحم مشـوي يمتلئ به أنفي، والآخر قرأت عيناي اسـم الصيدلية، وكيس ثالث أسـود لا أعلم ما بداخلـه، ورددت عليها بتحية مُقْتضبة، أشـيح بوجهي إلى الممر، تدنو برأسها مني، وتضع راحة يدها على كتفي مبتسمة.

– أَغاضبٌ من والدتي؛ لِما حدث مع والدتك من الشِجار على حبل الغسيل؟

فهززتُ رأسي مُؤمِّنًا على قولِها بأنني غاضب.

دهسَت بشبشبها الجلدي صرصورًا ضلَّ الطريق، ورأَته خارجًا من الممر نحو الشارع العمومي، ولم تطل الآخر الذى هربَ نحو الممر، ثم رفعت رأسها نحوي مبتسمة بصفاء، مُشيرة إلى كيس الدواء الذي تحمله.

– ادعُ لها بالشفاء؛ إنها تعاني الرُّوماتيزم.

أتمتم ببعض كلمات: لن يسلم أيٌّ مِنَّا من الأمراض بهذه الغُرف اللعينة.

استأذنت سامية بأن موعد الذهاب للعمل قد حان، تعمل ممرضة خلال فترة الليل في مستشفى خاص بمنطقة المهندسين، سوف تتناول العشاء في عجالة، وتعطي لأمها الدواء في عجالة أيضًا. وتركتني أتفحص أشلاء الصرصور.

جاء عمّ عرفة الغريب يتسكع كعادته نحو الممر، يحمل بيمينه أشياءه المُعتادة، يدخل كل ليلة إلى غُرفته التي يسكن بها مع زوجته، التي لا أعرف صوتها من قِلة حديثها، حاملًا كيسًا مُعتم اللون، ودائمًا باب غُرفتهما مُغلقٌ عليهما، فمنذ أن قدمنا وجدناهما على هذه الحال، وعَمّ عرفة الغريب رجل ذو بشرة سمراء، وشعر غزير ضربه المشيب، قصير القامة، بطنه كقربة ماء، ووجهه صغير ذو أنف كبير، وشارب كثيف، وإذا سمعنا ضُراطًا متعاقبًا، فيعلم سُكَّان الغرف جميعًا مَن بالحمام، ألَا وهو عَمّ عرفة.

أخبرنـي والدي قبل موته بموقف عن هـذا الرجل، فقد زادني حيرة تجاهـه بعد أن أكد لي مهنة الرجل السـابقة؛ وأنه ماسـح أحذية، قد رآه صدفـة عندما ذهب لخلع ضِرس يشـكو ألمه مجَّانًا في مستشـفى قصر العِيني، فالرجل ذو شـهرة كبيرة بالمستشـفى، يطلقـون عليه "عمّ عرفة أبـو فتق"، ولمْ يعرف والدي سـر هذه التسـمية، فالرجـل قليل الكلام، وصوته منخفض، مرَّ عليَّ دون أن يُسـلِّم، أظنه سلَّم؛ لكنني لمْ أسمعه، خرجت سـامية مُسـرعة، كادت حِين عبورها الممر تصطدم به، تعتذر، ولـم تنتظر منه جوابًا لتعجُّلها، مرت أمامي أشـتمُّ عطرها، تلقي بالتحية عليَّ، وخلفها ابتسـامة عذبـة تدعوني للتفاؤل: (قم يا حارس اسـترحْ، وربُّك سوف يَعدلُها).

أوصيها بأن تكون شديدة الحرص على نفسها، أسمع صوت صرير بـاب غرفة عمّ عرفـة يقفل، ولا يفتح إلا لقضاء الحاجـة، أو يظل مُغلقًا للصباح.

ظلت أَشْـرِعَة ذكرياتـي تتلقفها أمواج مُتَقاذفـة بالتتابع دون ملل، أو كَلل، تراودني ظنون كثيرة، أتطلع إلى السماء الصافية، تسقط ورقة فوق رأسي من شرفةٍ بالطابق الرابع ممتزجة بعطر الريحانة.

# (4)

مـر عامـان عليَّ مـن العزلـة الروحيـة والنفسـية، قضيتهمـا بصحبة الصُنـدوق، منـذ ليلة سـقوط الورقـة على رأسـي، لم أبصـر ريحانتي: نَرجِس إبراهيم، وكانت الرسـالة موعد غرام جديد وأخير، سـألتقي بها يوم الجمعة، وأنها سـتتغيب عن الدرس الخـاص باللغة العربية، اللقاء عنـد كوبري السـاحل، وعند ذهابي لم أجد لي غيـر أنيسٍ وحيد، كتابي خـارج الكتب الدراسـية، التي بعتُها بعد شـهور لتاجر الـورق بالكيلو، واحتفظـت بــ "طوق الحمامـة" لابن حزم، فهـذا الكتـاب أهداني إياه الأستاذ: محمد الشاعر، وظللتُ أقرأ فيه؛ حتى حفظته، ولم أجد أجمل منه أحمله معي من القرية وسط متاعي.

– لـم أرَ حقًّـا أشـبه بباطلٍ، ولا بباطلٍ أشـبه بحق من العشـق، هزله جـدٌّ، وجده هـزل، وأوله لعب، وآخـره عطب، مثل هـذا العطب الذي أصاب حياتي، بحر الفكر مَارٌّ برأسي، ومشاعري مضطربة تجاه نرجس إبراهيم، مشـاعر تعلـو وتنخفض، تقترب وتبتعد، مثـل: أُرجوحة تجاه مَـن يدفعها، هي ربيبـة العز بعد أن هجروا منطقة العجوزة القديمة؛ لأن البيـت الذي كانت تقْطنه آيل للسـقوط؛ فانتقلوا إلى هنا مُجبرين بشـقة جديدة بمساكن عزيز عزت، وعلى الرغم من شعبية المنطقة، وزحامها ظلَّـت نرجس بنتَ حي العجوزة الراقي سـلوكًا وفِعلًا، تسـكن بالطابق الثالـث بنفـس البِنَايَـة التي أسـكن (ببدرُومها)، وسـؤال مُلحٍّ بمشـاعر

تفرض نفسها؛ لتجعلني مُحبطًا لواقعيتها: هي تسكن فوق الأرض، وأنا أسكن تحت الأرض، فهل يستويان مثلًا؟!

عيون السماء لا يجيد قراءتها إلا أهل التنجيم، وكذلك عيون العاشقات لا يُحسن فهمها إلا العاشقون، فشحذتُ هِمَّتي، وارتديت أحسن اللباس، أردد ما قِيل عن الحُبِّ في كتابي "طوق الحمامة": "العشق جليس مُمتع، وأليف مؤنس، وصاحب مُلك، ومسالكه لطيفة، ومذاهبه غامضة، وأحكامه جائرة".

هنا توقفت عن القول لخاطرٍ لا أتذكره الآن فقد َورد في رأسي، وجعلني أشرد بعيدًا، تسبق الظنون خطواتي إلى كوبري الساحل، تحسست يدها الناعمة التي تسحبها برفقٍ من يديّ، التي كست جلدها صبغة الورنيش السوداء، تطلب مني ألَّا أغضب مِن ياسر المنزلاوي؛ لحادث تحطيم الصُندوق، وأنها تبغضه بُغضًا شديدًا، كلماتها كالْبَلسم للجروح، ووجهي لا يزال به أثر لَكمَات ياسر وقت ذاك، ضحكت وقلت: فهو كاره حاقد، لذلك فهو أضعف الناس، ولا يستحق أن أفكر فيه.

أشارت نرجس إلى ماء النيل الذي لا يكفُّ عن الجريان، ونحن نعتلي الكوبري، وخلفنا سرب سيارات لا ينقطع، متكِئينِ بساعدينا على السور الحديدي، بعينين يملؤهما الحزن الدفين الممتزج بالحيرة، والخوف، والحُبّ، قالت:

– هذا النيل يُشبه حُبكَ داخل قلبي، إن توقف ماء النيل عن جريانه ينتهِ الحب.

لقـد احتجتُ هـذا التأكيد منها؛ لمروري بحالـة من عدم الاتزان في كل شـيء، وهمسـتْ تُكمل حديثهـا: "لا أتوقف أبدًا عـن التفكير فيك يـا حارس؛ فمنذُ رحيل والدك، وأنت تحمل صُندوقه"، فاقشـعرَّ بدني، وصمـتُّ كثيرًا؛ أراقب جريان الماء، (ادعَك عيني براحة يدي) اختلاط الرؤيـة، وأشـعر بأنـه قـد توقف مـاء النيـل، وتتفحص نرجـس خريطة وجهـي، التي لعبت بتضاريسـه عاصفة هائجة مـن الغضب، والخوف، والصمـت المُريـب، تسـألني عـن سِـرِّ صمتي، وهـي تعلـم، فهل كان قدومهـا اليوم هو تقرير مصير، أمْ حنينًا، وشـوقًا؟ صمَتْنا؛ نراقب الأفق الأحمر حول قرص الشـمس عند الغروب، وقوارب تطفو تتلاعب بها الأمواج ذات الشِباك خالية من الصيد.

* * *

بدايـة القصة اسـتحضر "طوق الحمامة"، "إذا كان الحب له سـبب؛ فإنه سيزول بزوال السبب".

منذ أن قدمت إلـى المدينة، ورأيت نرجس تخرج من باب العِمارة، فتعلقـتُ بها، وظللت أيامًـا أُراقب عودتها من المدرسـة، وهي ترتدي (مريلـة كُحليَّة)، وتحتضن حقيبة كتب مطبوعًا عليها صورة بنت جميلة تمسـك بالزهور، شـيء ما يجذبني لها؛ لكنني أخاف الاقتراب، إلى أن سـنحت لي فرصة ذهبية، فقد وجدتُ حقيبتها داخل غُرفتنا، بعينٍ كلها لهفة لهذا الكنز الثمين، فأتساءل.. أجابت أُمِّي، وهي منشغلة في إعداد وجبة الطعام لي، أن هذه الحقيبة لابنة إبراهيم جارنا في الطابق الثالث،

وقـد تركَتها عندنا أمانة، وظلت تسترسـل ما بقي مـن أمر الحقيبة، بأنها كانت جالسـة بجوار أُمِّ سـامية في مدخل الغُرف عند السُلم الخارجي، تراقبـان السـابلة، طال استرسـالها عن حكايات كثيـرة لا أتذكرها، وقد طـال تأمُّلـي في صـورة صاحبـة الحقيبـة التـي تداعب خيالـي، خطوة اتخذتها وأخشـى أن تكون عواقبها وخيمة، فقد وضعت داخل الحقيبة جزءًا من سـيقان الريحان التي قطفتها من حديقة المدرسة، كتبت ورقة بشـعورٍ مُتمنٍّ أن تحتوي على عبارة واحـدة: "لمْ أجد أبلغ من الريحان رسولًا، وتعبيرًا عن مشاعري، ولعلَّ رائحته تصل إلي قلبكِ قبل أنفك".

انتهيـت من مُهمتـي بوضع سـيقان الريحان، ومعهـا الورقة دون أن تلاحـظ أُمِّي شـيئًا، فهي لا تزال تواصل إعداد الطعام، واسترسـالها في الحَكـي عن نسـاء السـرِّيحة، وأُم سـامية، أسـمع طَرقات علـى الباب، نرجـس أمامي تطلب حقيبتها بعد أن شـكرت والدتـي، وظللتُ يومين أنتظر ردّ فعل الريحانة، فهل نفذ الريحان إلى قلبها، أم إلى عقلها؟

ليلة الخميس، سمعنا طرقات على باب حجرتنا، نرجس حلت علينا ضيفة كريمة، تطلب منـي بعد الاعتذار الممتزج بالدلال، أن أجيب لها عـن سـؤالٍ في اللغـة العربية: "أيهما أسـبق في الوجود الشـعر، أم النثر الفنـي؟"، فدعوتُهـا إلـى الدخول إلـى الغُرفة، وسـاعدتني أُمِّي في هذا الأمر، وقلت لها: اجلسـي على المقعد الوحيد بالغُرفة، وجلسـتُ على السـرير أمامها مُترقبًا بحواسـي كلها، شـاخص البصر، فتسألني أنها لم تتلقَّ جوابًا عن تسـاؤلها، وأصبح رأسي خواء، انعقد لساني برهة، لكن

الصدفة السعيدة أننا أخذنا هذا الدرس أمسِ في مدرستي، درس اللغة العربية التي أُحبها جدًّا، وكان الأستاذ: محمد شاعر المدرس بالقرية له الفضل في ذلك، على الرغم من اختلافنا في يومٍ ما عن نظرية كروية الأرض، ولم أقتنع بنظرية "كوبرنيكوس" التي تؤكد كرويتها، واختلافنا أيضًا حول قانون الجاذبية الأرضية؛ لأن من البدهيّ أنَّ كل شيء ذا ثقل يسقط للأسفل، وإن صدقت رؤيتي، أو كذبت في هذا الوقت؛ فإنها عقلية صبي لمْ يتجاوز الرابعة عشر عامًا، وقد طال الجدل بيننا؛ لكن في النهاية ربَت على كتفي برفق، وتبسَّم وتنبأ أن يكون لي شأنٌ عظيم عندما أكبر؛ لأنني دائم التدبُّر والتفكُّر، وأنهى حواره معي بمزاح؛ فإن لم أؤمن بكروية الأرض وجاذبيتها؛ فلن أنجح نهاية العام، فضحكنا معًا، ونجحت هذا العام على الرغم من عدم إيماني بمعطيات مُسلَّم بها من قِبل الناس جميعًا.

تنتظر نرجس البتَّ في مُعْطى الواقع المحيط بنا، تتطلع إلى وجهي؛ تتأمل تعبيراته التي تُشبه ليل الخريف، وعدم الجواب هو إفلات بالفرصة التي منحني القدر إياها، ولعل هذا الأمر يفتح لي سبيلًا جديدًا إلى قلبها، أعتصر الذاكرة: الشِعر أسبق من النثر.

أخذت عن لساني القول، لتُكمل كأنها مذيعة لنشرة الأخبار: "لأن الشِعر يقوم على العاطفة والخيال؛ أمَّا النثر فيقوم على التفكير والمنطق، فالشِعر أعقد من النثر؛ إذ لا يكفي أن يمسك الأديبُ بالقلم، ويقرِّر أن ينظم شِعرًا، فيفعل، بل لا بُدَّ أولًا أن تكون لديه موهبة الشِعر،

بخـلاف الأمـر في كتابة مقالـة، أو تأليف قصـة مثلًا؛ إذ يكـون للتنظيم والإرادة مدخـل كبير فيهمـا، كذلك فإنه إذا كان الأدباء قلةً بين البشـر؛ فإن الشُّعراء هم قِلَّة القِلَّة.

قاطعتها بابتسامة تنمُّ عن إعجابٍ شديد لقدرتها الفائقة على الحِفظ، وتأكدت الآن أن الريحان لامس قلبها، وأكملت عن لسانها: العاشقون الحقيقيون أيضًا قِلَّة القِلَّة، والخيال لا شك هو الأسبق.

نظـرت نرجـس إلـى حذائها الأحمـر، الذي يُشـبه لـون (بلُوزتها)، وهمست في خجلٍ مُفرط مثل:

- مِثل: خيال صاحب الريحان.

اهتز جسـدي على سـريري الواهـي؛ خوفًا من الصدمـة، لكن تلك الابتسـامة طـردت ظنونـي الرماديـة من رأسـي، وانصرفت وهـي تمدُّ يدها بمظروفٍ مُقفل، فتحسسـته يداي، وعينـاي اللتان ترقبان رحيلها، ونشـوة تجتاح جسدي منذ أن لمست يدها الناعمة عند ودَاعي، وظلَّت عينـاي خلفها بالممر، تحرسـانها من نسـمة البرد التـي لفحت وجهي، وقطع سـرب أحلامي السريالي صوتٌ قادم من مدخل الممر: (السلام عليكـم) مُوجَّـه إلينـا مـن أُمِّ طـارق: زوجـة الأسـتاذ: رأفـت صاحب الغُرفتيـن الأوليين، اللتين لهمـا باب واحد، ويتخذهما الأسـتاذ رأفت وأسـرته سـكنًا لهُمـا، وهي سـيدة جميلة الوجـه ترتدي حجابًـا، وثوبًا فضفاضًـا، والوحيدة بين سـكان البـدروم رجالًا، أو نسـاء التي تذهب إلى الصلاة في المسـجد يوم الجمعة، وتواظب في شـهر رمضان على

صـلاة القيـام، وزوجها موظف في إحـدى المصالـح الحكومية، وأراه قليـلًا جِدًّا؛ لأنـه دومًا في العمل، ولا أدري طبيعة عمله، لكن سـمعت ذات مـرة أُمِّـي تقول: إنـه يعمل إداريًّا فـي المنطقة التعليميـة بمحافظة الجيـزة، فلجـأ له والـدي عندما أتينـا من البلدة، واسـتطاع عـن طريقه التقـدُّم بأوراقي، والالتحاق بالمدرسـة الثانوية للبنين العسـكرية، وهو رجـل قادم مـن الأقاليم التي حـول القاهرة؛ لكنه عندمـا يتحدث تتيقن أنـه مـن مواليدها، ويبدو رجلًا سـريع التأقلُم مع البيئـة المحيطة، مثل: الحشـرات التـي تتخذ حِيلًا، وسُـبلًا كثيرة؛ لمواكبـة الظروف، وطارق ولده في الإعدادية، وابنته ميرفت بالمرحلة نفسها خلف طارق بعامٍ.

ويُعـدُّ رأفـت قائد الغُرف بقراراتـه، فاتخذ قرارًا بتغييـر باب الحمَّام ذي الثقـوب الكثيـرة، وظل أخي محـروس يكرهه؛ بسـبب هذا الأمر، وتجديد أرضية الحمَّام التي تآكلت، وتغيير السـقف من أشـياء متراكمة عليه من ألواح خشـبية، وقِطع من صفائح الحديد، إلى سقف خرساني مُحكم، وجمع المال، ومَن تعثر ناب عنه.

وعندما انتصف الليل، توقفت سـيارة نقل أمـام العمارة عند مدخل الممـر، بصُحبتها الأسـتاذ: رأفـت، ومعه عامـل، وعدد مـن الصناديق الورقية ذات الورق المُقوَّى "كراتيـن" الممتلئة بالبضاعة، فأدخلها إلى غُرفته الثانية، وحمل الصناديق بسرعة بمساعدة الرجل، يدور برأسه في كل اتجاه، وأستشعر قَلقه عن بُعد، فكنتُ أراقبه رغم الظلام الذي اتشح به نهاية الممر أمام الحمَّام.

بعد منتصف هذه الليلة، سمعت أُم طارق تهدده بأنها سوف ترحل عن الغُرفة، إن لم يحمل هذه الأشياء دون رجعة، سمعتُ نبرات صوته المرتجفة، وهو يطلب منها أن تخفض صوتها وسوف يستجيب لرغبتها، فأغمضت عينيَّ بعد أن عُدت من الحمَّام، كما سددت أذنيَّ عما بقي من حوارٍ بين رأفت وزوجته، وتذكرت خطاب نرجس، وظللتُ أجترُّ الخطاب الأول والأخير منها، وجمعتنا مواعيد غرامية حتى آخر موعد على كوبري الساحل، وظل الخِطاب لا يفارق أشيائي القيّمة التي أدخرها، وما زلتُ أتذكر ما بقي من قصتي مع نرجس، وصوت طبطبة لأقدام تمرُّ أمام الحجرة، يبدو أن هناك زائرًا جديدًا (للحمَّام)، لكن وقع الأقدام أظن أنه لسيدةٍ؛ لهدوء وقعه على الأرض.

# (5)

بينمـا تنصرف صاحبة الصوت من الحمَّام، أسـمع أصواتا لطرقات أحجـار الدومينـو، تأتينـي مع رائحـة نبـات (البانجو) المحـروق، من إحدى غرف السـريحة، وشتائم الريس عبد الحكيم ينهر الناس جميعًا، ثم يسـبُّ خميس ابنه، بأنه إن لم يكفّ عما يفعله هو وهؤلاء السـفهاء، فسوف يُبلغ عنهم الشرطة، أعلم أن الريس عبد الحكيم يهدد فقط.

بعـد برهـة خيمت علـى الممـر حالة مـن السـكون التـام، وهدأت الغـرف، فعُدت إلى نرجس، أغوص وحيدًا في بحر الذكريات العذب، وظللنـا عامًا ونصفًـا نختلس النظـرات والمواعيد الغرامية، ورسـالتها التـي منحتْنـي إياها ليلة سـؤالها عـن الشِـعر والنثر، تتضمـن البوح بما يجيش بصدرها.

نجحنـا والتحقنـا بالعـام الجديـد، وقضيـتُ عامًـا ونصـف العـام بالمدرسـة، ولا أهتم إلا بنرجس ودُروسـي، وانتهيـت من نصف العام الدراسـي الثاني، وحلَّت الإجازة المدرسـية، اشـتقت للقـاء، ولم تهدأ فرائصـي قاطعًا الممر ذهابًا وإيابا إلى الشـارع العمومي، لعل عطية من عطايـا الحـب التي لا تنتهي تصيبنـي، وكانت عطية الحـب هذه المرة، أننـا خرجنـا نهـار اليوم التالـي معًا إلى حديقـة حيوان الجيـزة، وقضينا سـاعات طويلة على المسـاحات الخضراء، وطيـور الزينة والحيوانات

الحبيسة داخل أقفاصها، تدغدغ أصواتها عواطفنا، وبدأ النصف الثاني من الدراسة، وانقطعتُ عن نرجس وعن المدرسة؛ لانشغالي بوالدي المريض، ومصاحبته إلى قصر العيني للمتابعة مع الطبيب، وحالته التي تزداد سوءًا يومًا بعد يوم، ونرجس في زيارة لوالدي بكلماتٍ تحمل براءة وحبًّا؛ تحاول أن تبثَّها داخل صدري، الذي يُشبه بستانًا، أرضه جدباء، وأغصانه ممتلئة بالبراعم الذابلة، وظلت تمزح مع والدي، لكن الآلام أسكتت جوارحه إلا عن القِيء والسُّعال.

كما جاء لزيارة والدي "سمير مبروك"، يدفع كرسيه المتحرك، هو يسكن وحيدًا بعد موت والدته بغُرفة وسط الغُرف، فعجبت كثيرًا لهذا الشاب عزيز النفس رقيق المشاعر، وكانت تأتي شقيقته المتزوجة في إحدى قرى الجيزة كل يوم جمعة؛ لزيارته، وتذهب بالدموع لإصراره على البقاء داخل الغُرفة وحيدا، تأتي لتغسل ملابسه، وتحمل عنه بعض الزجاجات الممتلئة بالبول، وتنظف غُرفته، وتتركه متألمة كأنها تترك قطعة من جسدها داخل الحجرة، وتوصي عليه أُمِّي وأُمّ سامية. "سمير مبروك" دائمًا تجده مبتسمًا متجدد الحكايات خفيف الظل، يتقاضى راتبًا قدره مائتان وخمسون جنيهًا كل شهر من أحد المطاعم الكُبرى، وهي سلسلةٌ تغزو شوارع العاصمة؛ وعند أول كُلَّ شهر كُنَّا نحمله داخل سيارة أُجرة؛ تذهب به إلى حيث يتقاضى راتبه، منتفعًا من القانون رقم 39 لسنة 1975م، بشأن ذوي الاحتياجات الخاصة.

إِبَّـانَ أيام مرض والـدي لم نكن نخلُدْ إلى النوم مُبكرًا؛ حتى نسـمع صوتًـا يأتي لزيارتنا كل ليلة، ألَا وهـو الرَّيس عبد الحكيم بعد أن ينتهي من جلوسه على المقهى، يأتي إلى الممر بصوته الجهوري، ويسأل عن والـدي، ثـم يضع يده في جيـب جلبابه، ويخرجها فارغة عندما يسـمع كلمات الشُّـكر من والدتي بأن السِتر حالنا، ومنحني قبل السـفر ورقة عليهـا رقـم الهاتف بقريته، أخبرني أنه سـوف يغادر اليـوم، وإن حدث شيء فهو رهن مكالمة منَّا؛ ليأتي على الفور؛ لأن بلدتهم التي يسافرون إليها تبعد قرابة السـاعتين ونصف الساعة بالسيارة عن محافظة الجيزة، وانصرفـوا جميعًا، وتركوني مع ألـم والدي، ودموع والدتي، بكيت في صمـت، ولا يزال ألم العين يـزداد منذ أن اتخذنا هذه الغُرفة سـكنًا لنا، وأدعـك عينـي براحة يـدي دَعْكًا شـديدًا، لكـن ازدادت دموعي عندما رأيتُ والدي يُخرج من فمه قيئًا دمويًّا.

قبـل رحيل والدي بأشـهر انطفأ مِصبـاح غُرفتنا مبكـرًا، وفي جوف الليل سـمعت مُجبرًا، ولم أسـعَ لأسـترق السمع، أسـمع كلامًا لم أكن أنا مقصودًا به، لكن بالغُرف يحمل الهواء -الذي تتنفسـه- أسـرارًا إلى الأذن قبل أن يصل الهواء إلى الرئتين، فأيَّة حركة على سريري تُشعرهم جميعًـا بالحرج، فظللـتُ متصلِّب الجسـد أكتم أنفاسـي، همس لأُمِّي بأنه صار شـبه عاجز جنسـيًّا، وأخذ يَلعن المرض، ويعتذر في انكسـار، ويعطي لها الأمل بأنه سوف يشفى بشرط أن يستمر في تناول الدواء كما أبلغه الطبيب، والدتي وخيبات الرجاء تتوشـح بها مع غطائهما، وتشـدُّ من أزره بأنه لا يعنيها شيء في الدنيا سوى صحته.

أظن من قبل ذلك الهمس بكثير، سكنت حياة الرهبنة غُرفتنا، ودامت إلـى الليلة التي رحل فيها، ولم نسـتطع حمل جسـده إلى البلدة؛ لضيق ذات اليد، ولم يحضر عمِّي العزاء، وعملت بوصية والدي، الذي حكى لنا بعدما خسـر في سباق رهان أحلامه مع المدينة الكبيرة عن مشاعره تجـاه أخيه، والظلم الذي جعلـه يترك بلاد أبيه وأجـداده، والحقيقة أنه كان مُجبـرًا علـى الرحيل، وليس كما كان يعلنها بأن السـفر إلى المدينة الكبيرة حُلمه، وعندمـا ظلَّ والدي يحكي لوالدتي ونحن داخل القطار عن الأمل الكبير، واجترار قصص النجاح عن أشـخاص هجروا القرية للمدينة التي تتسم بسعة الرزق، والآن أصبحوا أهل ثراء بعد أن ضاقت بهـم الحال خلف الجبل، مات والدي، ولم يعلم أنه وملايين من أمثاله قد دخلوا إلى تلك المدينة عن طريق ممرات النفايات.

# الفصلُ الثَانِي

أحلامي مثل ألعاب الأطفال:

صغيرة، وكثيرة، وسهلة الكَسر

# (1)

انتهيتُ من الإبحار في عامين قد مرَّا عليَّ، فقدت فيهما والدي، ونرجس التي ذهبت في صمت واستسلام، بعد آخر لقاءٍ بيننا على كوبري الساحل، اليوم عُدتُ إلى أرض الواقع بصحبة صندوقي الذي صار كأنه قطعة من جسدي في أثناء عامين، أجلس ساعة الضحى أمام مسجد سيدي إسماعيل حتى الانتهاء من صلاة الظهر، وأنا أتطلع لنعال بعض مريدي الضريح، ارتشفت الشاي، ودار حديث مُطوَّل في شَتَّى الأمور مع بائعة الشاي، التي تزفر دخان سيجارتها بكثافة، وطلبت مني البقاء؛ فسوف يحضر بعد دقائق متصدقٌ معه صدقاتٍ عظيمة، يُحسن للناس جميعًا، غضبتُ من حديثها: فكيف تدعوني لممارسة التسول؟

كما غضبت المرأة من بائع الأحذية المتعلة، الذي يمسحها، ويرصُّها على الرصيف كل صباح؛ لعرضها إلى الزبائن، ومنحني أحذيته أكثر من مرة؛ لمسحها، لكن كان شحيحًا في دفع قيمة عملي، وبعد الشِّجار الذي نشبَ بينهما منذ دقائق أقسم الرجل: إنه لم يطلب منها أمسِ سوى خمسة أكواب من الشاي، وهي أقسمت إنه طلب منها ثمانية أكواب، وأثار الخلاف على ثلاثة أكواب جدلًا كبيرًا، وتشتكي إلى الله ضعف قوتها، وقلة حِيلتها: "دا حق أيتام يا ناس"، ثم انصرفتُ عن المرأة، ومُتصدقيها، وحذرتها بألَّا تدعوني إلى مأدبة التسول مرة أخرى، حملت صندوقي من حمالته، وتركته يتأرجح كما تتأرجح

الأفكار برأسي المزدحم، وانتقلت إلى السوق، وجلست بجوار "مرسي" بائع الجرائد.

على الرغم ممَّا آل إليه حالي، وتركي للمدرسة؛ فإنَّ حبي للقراءة لا يزال هو الطاقة التي تمنحني القوة لمواصلة الحياة، أقترض الجرائد، والكتب، والروايات منه، وهو كان يطلب مني في كل مرة نلتقي، مسح حذائه القديم الذي زكمت رائحته الكريهة أنفي، ؛ لألمعه له دون مقابل، كان يلمع حذاءه أكثر من الاسْتِحْمَامِ، فعلاقتنا أشبه بتبادُل المنفعة فقط، ثم طورتُ من مهام عملي، ووضعت داخل صُندوقي فَرْشًا أضعه بالأحذية التي تآكل فرشها من الداخل، ويمر عليَّ كثير من الزبائن ذوي الأحذية المتهالكة، أحاول إصلاح بعضها، وبتغيير أربطة الأحذية ووضع فرش جديد لها، ومسح الحذاء جيدًا.

أتت أُم "أحمد" بائعة البيض اليوم متأخرة؛ لأن قطار المناشي تأخر ساعتين، يوجد حادث في أحد المَزْلَقانات، ومات على إثره عدد من الأطفال، وسيدتان، ورجل، فحمدت الله أنها لم تكُن بين من أقلهم القطار المنكوب، تتحسس بضاعتها داخل قُفة مضفرة من أوراق شجر النخيل، والبضاعة، هي بيض الدجاج المدفون بباطن تِبْن الماشية، أو نخَّالة الدقيق للحماية، وقد جمعنا الهمَّ والشَّقَاء منذ عامين، بعد شجارٍ نشبَ بيننا على الجلوس بهذا المكان، أمام حانوتٍ لبيع الأسماك كانت تجلس فيه قبلي، وهي سيدة في منتصف العقد الرابع من عمرها، ترتدي جلبابًا أسود، وحجابًا أسود، وتحته منديل أخضر تعصب به شعرها،

وجههـا به نمشٌ خفيـف مائل للحُمـرة، وجمال وجههـا يختفي خلف وجع السـنين الـذي ألمَّ بها، وبعد الشـجار الـذي تعالت فيـه أصواتنا، خرج علينا صاحب محل الأسماك، تفوح رائحة السمك منه، يطلب منا إمَّا الصمت، أو الرحيل، فجلسـنا وقتًا طويلًا صامتَيْنِ، بين حينٍ وآخر، أضرب على صندوقي بالفرشـة الخشـبية؛ مناديًا على زبائني: "ورنيش يا بيه"، وكان أولهم صاحب محل الأسماك، الذي لم آخذ منه نقودًا.

لما كان الرزق في هذا اليوم وفيرًا، قررت والحمد لله أن أعرف شيئا جديدًا، وهو الادخار، وقالت لي بائعة البيض أُمّ أحمد: إنها تدخر داخل صنـدوق البريد دون علم زوجها، وعند ذكر سـيرة الزوج أراها كل يوم متقلبـة المزاج، يومًا تذكر أنه زوج سـيء، وتفرط في عيوبه، ويومًا آخر تحمد الله قانعة راضية بحياتها دون الخوض في عيوبه، تشـتري المرأة نهاية كل يوم من السماك رغيف جمبري، ولم أعرف سر مزاح السمَّاك معهـا، وهـو يعبث بظفره في بثر وجهه الممتلئ، ويهز رأسـه بسـخرية:

- جمبري أمس له سِر باتِع وعظيم.

ظللـت انتقل ببصري بينهما، وأنصت للمـرأة التي ضحكت بعد أن ذهب ضيق صدرها، وهمست بخجل مُفرط:

- الجمبري صار فسيخًا.

تغـدو الناس ذهابـا وإيابًا حول البائعين الذين يفترشـون الشـوارع، وسـيارات الأُجرة تأتـي من نفق المنيـرة، ويقف أخي محـروس مناديًا علـى زبائنـه، ويصلنـي صوته من بعيـد: "دُقِّي - جيـزة"، ولا يكفُّ عن

تكرار مقصد سيارته، وأشيح بوجهي في الاتجاه الآخر حتى لا يراني، فيواصل سيل سخافته الذي لا ينقطع أبدًا، ولا يزال يُصرُّ بأن يدعوني للعمل معه، مر اليوم بين النظر إلى كل شيء يمر أمامي، وانتظار زبائني الذين كثروا في الآونة الأخيرة؛ لأنني أصبحتُ متمرسًا.

آويت إلى فراشي الليلة مبكرًا، شعرت أُمِّي بالملل من انتظار عودة "محروس"، فقررت هي أيضًا النوم، مرت دقائق، وانقلبت غُرفتنا إلى حالة من الفوضى أكثر من السوق، داهم أفراد من قوات الشرطة غُرفتنا للبحث عن "محروس" أخي، وأحاط بنا الجنود من كل جانب، ووقف بعضٌ منهم عند مدخل الغرف يحمل سلاحه في ترقُّب شديد، وكلُّ شيء بغرفتنا مرهون تحت أقدام رجال الشرطة، وأيديهم، فقد افتعل محروس مشكلة مع أحد رجال جراج السيارات، الذي يجمع النقود من السائقين؛ فلهذا اهتم رجال الشرطة، يريدون القصاص لرجُلهم الذي ضربه أخي ضربًا مبرحًا، وولَّى هاربًا، وانتهى الأمر بالصلح بينهما، وقبَّلت والدتي جبين الشاب بأن يتنازل عن شكواه ضد ابنها، وتدخَّل في الأمر الأستاذ رأفت، الذي اصطحب معه شخصية مهمة، تاجر ملابس له كلمته في المنطقة.

وعلى الرغم من ذلك؛ فإن محروس لا يزال يصرُّ بأن الأستاذ رأفت كالحرباء مُتلون، والذي تعرقلت قدمه في هذه الليلة عند عودتنا من جلسة الصُّلح في أشياء السرِّيحة، وقال رأفت بحزم، وبصوت فيه نبرة تحمل الأمر والتهديد، بألا يضعوا أشياءهم التي كثُرت في الآونة

الأخيرة داخل الممر.

تخرج "سامية" من إحدى غرف السريحة، واقتربتْ؛ تتقصى خبر عودة أخي، وبعد أن أعطت لأحد الأطفال حُقنة، ووصفت لوالدته شكل علبة الأدوية، ولونها؛ لشرائها للصغير، الذي يشعر بضيقٍ في التنفس.

اجتمعت النسوة داخل حجرتنا، وأصواتهنَّ طنينُ الذُّباب، ضاق صدر "محروس" منهنَّ، وانصرف متجهم الوجه، ضاربًا باب الحجرة بقوةٍ عند خروجه، ترقبه عينا أمي، وتبتلع غضبها فى صمت، فخرج ثائرًا على ثرثرة النسوة اللاتى لا تنقطع، وما زلتُ أقف مع سامية بالممر، تواصل حديثها عن سوء حالة الطفل المريض الذي نصحت أُمه الذهاب به مبكرًا إلى مستشفى الصدر بإمبابة، يمر بنا عمّ عرفة الغريب يجرُّ قدميه، ولا يهتم بما يحدث داخل الممر، متجهًا صوب المرحاض نهاية الممر، ويبدو أنهُ في عجالة لقضاء حاجته، وبعد برهة ضحكنا من صوت ضراطه المرتفع.

# (2)

مرت سـنوات والحال لم تتغير كثيرًا، كأننـي أدور في حلقة مفرغة، بمسجد سيدي إسماعيل الإمبابي حلقة ذِكر بعد صلاة العشاء، وعرفت في أيّ الأوقات يكثر فيها المريدون، وهيَ حلقاتٌ يتمايلون فيها شمالًا ويمينًـا، ويجهرون بحُبِّ الله ورسـوله، وأهل البيت، أسـمع أصواتهم الذاكرة:

"– ننعم بذكر الهاشمي محمد، ففي ذكره العيش المُهنأ والأنسُ، إلخ...

– فكلٌ له عرس بذكر حبيبه، ونحن بذكر الهاشمي لنا عرسُ.

– الله الله حيّ".

إنها أشـبه بإحـدى الطرق الصوفية التي لا أتذكر اسـمها من كثرتها، مازلت جالسًا أمام باب المسجد، أنتظر نعال الذاكرين الدراويش؛ لعل هنـاك رزقًـا جديدًا، وعند عُودتـي متأخرًا ليلًا، رأيـت بعضًا من العمَّال يحملـون أثاث غُرفة الأسـتاذ رأفت، إلى شـقةٍ بالطابـق الثاني في نفس العمارة، التي نقطُن بِبَدرومها، وهذا الحدث أعطى لي دافعًا للمواصلة، وأنَّ مـا أقدمـت عليـه من ادخار بعض النقـود بإيعاز ونصائـح أُمّ أحمد بائعـة البيـض، يمنحني أملًا للصعـود يوما فـوق الأرض، وجدت أُمي جالسـة على سريرها ترتق لي جلباب والدي المفتوق من تحت الإبط، وتحاول أن تُعيد هندامه على جسدي بالتقصير، أو التضييق، كما وجدت

"محروس" جالسًا على سريرنا صامتًا، وليس كعادته زياطًا يقلب الغرفة إلى حالة من الفوضى، ويواصل مزاحه معي، والمشاجرة مع والدتي التي تُسمعه دون اِنقطاع كلمات النُّصح، بأن يكون حريصًا على نفسه، وأن الطريق الذى يسلكه لن يجني منه شيئًا، غير سنوات من عمره، يهدرها خلف أناس لا تخاف الله، وينتهي نشيد النصائح الذي لا تضجر منه مُطلقًا بالدعاء لنا، كما كانت تقول: "خذا والديكما عِبرة"، المشاركة منذ سنوات في اتخاذ قرار خاطئ، تجعلها لا تستطيع التمرد على نتيجة الواقع، أسمع توجُّعها إبرة الحياكة التي وخزتها في راحة يدها.

عند دخولي ومرورى بالغرف، لم ترَ عيناي باب غُرفة أُم سامية مفتوحًا كالعادة، ولم أُعِر هذا الأمر اهتمامًا؛ لكن هذه الملحوظة ظلت داخل عقلي المزدحم، واقتربت من والدتي أسألها عمَّا يحدث في الممر من الأستاذ: رأفت، تتحدث بأملٍ مفقود، أن الله أكرمه، وتدعو الله أن يَمُنَّ علينا بمثله، فقاطع حديثنا "محروس" النائم على السرير محملقًا في سقف الحجرة: هذا الرجل لصّ، وكذَّاب، ومُتلوِّن.

نهَرته والدتي بأن يكفَّ عن كِيل التُّهم للرجل، يواصل "محروس" حديثه دون أن يضع في الاعتبار تحذير والدته، بأن الرجل يبتاع البضائع الرديئة، أو مستوى ثالث، ويعبئها على أنها من إنتاج اليابان، في علب مصنوعة من الورق المُقوَّى، ومكتوب عليها "صُنع في اليابان"، وتطبع وتُصنع العُلب هنا، ثم تُباع بضعف الثمن، هذا غير معرفته ببعض الرجال الذين تدور حولهم كثير من الشُّبهات، مثل: موظفي المَحليات، وبعد

ذلك بأشهر صدقت التُّهم التي يُكيلها محروس للرجل، وذاع صِيته بأنهُ يستطيع تسهيل بعض العمليات، مثل: استخراج رخصة قيادة، أو المساعدة في أخذ شقة من المحافظة، وهذا كله مدفوع الأجر، طلبتْ منه سامية أن يساعدها في أخذ شقة في المساكن بإحدى المدن الجديدة، التي بدأت المحافظة بتوزيعها على بعض سُكان الغرف، فهزَّ رأسه بأنه سوف يفعل، وتغامزوا جميعًا عليه يوم أن ركب مع موظف المحليات داخل سيارة الأُجرة، على الرغم من أنه الوحيد بيننا الذي أخذ شقة جديدة من المحافظة؛ لكنه قرر البقاء بالمساكن، وصعد إلى الطابق الثاني بعد أن باع الشقة الجديدة؛ متعللًا أنه يحب سُكان أرض عزيز عزت.

والدتي لا تزال تُصرُّ أن يكفَّ محروس عن هذيانه، وكَيل التُّهم للرجل، ثم تؤنبه، وتعايره بأن هذا الرجل أفضل منه؛ لأن الشرطة لم تداهم غُرفته، فيغضب محروس: (يلعن دين أبو رأفت، ودين اليوم الذي رأيناه فيه) أطفأت أُمي المصباح تستغفر الله على ما قاله ابنها، وتنعته بالفسق والفجور، تستدير إلى الحائط؛ لترقد على جانبها الأيمن، وقد كسا الظلام فضاء الغُرفة، واضجع بجواري أخي، اقترب مني؛ يطلب بهمس أن أقرضه نقودًا، وسوف يعيدها لي خلال أسبوع، همس بهمسٍ، فأجيبه:

– لا يوجد معي نقود، ما كان بين يديَّ كله أعطيته لأمي ليلة أمسِ، وذهبت اليوم إلى صاحب الغُرفة لدفع ثمن إيجارها، أواصل حديثي بنبرة تبْكِيت له: أمْ تريد أن نُهدَّد بالطرد كما فعلها الرجل عندما تُوفيَّ والدي،

وقـد تأخرنـا عليه بضعة أشـهر، فحذرنا بأنه سـوف يطردنا مـن غُرفته.

نظر إليَّ متجهم الوجه، يتقصى حقيقة الخبر: متى حدث هذا الأمر؟

سـاخرًا منه: اسـأل نفسـك، وعندمـا طلبتْ منـه والدتي مسـاعدتنا انسـحب، ولولا أن اقترضتْ أُمِّي من أُمِّ سـامية إيجار شهر، لتُسكّت به فَم الرجل الجائع، لكان الآن المأوى الوحيد لنا الشارع.

اعتدل في جلسـته، ثم أشـعل سـيجارة حشـيش، وأخـذ منها بضعة أنفـاس متعاقبـة، ولـم يبـالِ بسـؤالي الذي وجَّهته إليه أن يسـأل نفسـه، فضحك مُتعاظمًا في مجلسه، ثم أشاح بوجهه إلى سقف الحجرة، ولـم أرَ تعبيرات وجهه من شـدة ظلام الحجرة، ودنا برأسـه من أذني يهمس في خوف وترقُّب:

– أم سامية هذه امرأة مثيرة تتمتع بخبرة كبيرة.

لـم أَلُمه، أو أهتم لكلماته، فهمس في أذني صوتٌ مُلحٌّ للرجوع إلى كلامه عن أُمِّ سامية، وقد قرأت في كتاب من تلك الكتب التي أستعيرها من "مُرسـي" بائع الجرائد: "لكي تعيش سـعيدًا لا تُحلل كل شيء بدقة شديدة، فإن الذين حللوا الماس وجدوه فحمًا". لماذا اليوم غُرفة أم سامية موصدة الباب؟ فتساءلت عن سر هذه الكلمات التي تفوَّه بها منذ قليل، وواصـل ضحكـه، ولا يعير خوفي وحيرتي اهتمامًا: السـرُّ في الأنبوبة.

لـم أفهـم معنـى قوله؛ لكنه أعـاد على مسـمعي جملته مـرة أخرى، وبإصـرار اسـتوضحه مـاذا يقصد؟ فـإذا به يواصـل حديثـه بالتغزل في

أُم سامية، وعن جمال الوجه، وأنها ذات قِدٍّ أهيف، وجسد غض ذي مؤخرة رخوة، تغيَّر لون وجهي من كذبه على هذه المرأة البدينة، ووجهها ذى ملامح ينقصها شارب، وتصير رجلًا، فضلًا عن عمرها الذي تجاوز الخمسة والأربعين عامًا، وهو عمره اثنان وعشرون عامًا، إن نظرت إليها تظنُّ أنها تجاوزت الخمسين عامًا، وأشاهدها في الصيف تجلس أمام التلفاز بملابس خفيفة، جسدها مترهل ضخم، وصاحبة بشرة بيضاء، دميمة الوجه والخُلق، وتحمل أواني الطبخ أمام الحمَّام؛ لتغسلها كاشفة عن ساقَيها، اللتين تهتزان ككيس ممتلئ بالماء.

حالة من الضحك الهستيري يواصلها مع أنفاسه، تسعلُ أمي عدة مرات إثر سحابة الدخان التي ملأت فضاء الغرفة، فصمتنا معًا، واعتدلت في جلستي ممتقع الوجه، الذي تكسوه الدهشة، فقد بدا لى كلامه حقيقيًّا، خرجنا إلى الممر، خشية أن تسمع أمي كلامه، وأنصت إليه: الدُّهن في العَتَاقي.

يقصُّ عليَّ الأمر برُمَّته، فأطلب من هذا الشخص شبه المُغيب أن يخفض صوته، الذي يعلو وينخفض دون رقيب أو توجس، ويبدو أن "محروس" واقع تحت تأثير سيجارته التي يواصل حرقها، ومع كل فاصل من قصته يأخذ منها أنفاسًا متعاقبة.

في ظهيرة اليوم، وهو راقد على سريره، طلبته أُم سامية؛ ليساعدها في تغيير أسطوانة مَوْقد الغاز؛ لأن قدميها تؤلمانها من الروماتيزم، فقام على مضضٍ بِحَمْل الأسطوانة الفارغة من الغرفة، ثم عاد إليها

بالممتلئة من الشـارع العمومي، فبادرته بالسـؤال عـن أمه، فأجاب عن تساؤلها: والدتي ذهبت لدفع إيجار الغرفة.

يضع الأنبوبة عن كتفه اليمنى عند باب غُرفتها، ويستدير؛ قاصدًا سريره؛ لكي يُكمل نومه، فطلبت مساعدته بأن يضعها بجوار الموقد الذي يقبع في أحد أركان الغرفة، وحمل الاثنان الأنبوبة معًا، وصدرها المترهل يتراقص أمـام عين "محروس" الذي ظل واقفًا محملقًا، وهي تحاول ربط الصمولة بقوتهـا كلهـا، فيقف خلفها يتطلـع لمؤخرتها التـي تهتز، ثم اقتـرب منها؛ يبحث عن ضالته مراودا إياها عن نفسها، حاولت أن تصده باستحياء، فلم يبـالِ بصدها، وركل بقدم المقعد الخشـبي الذى يحـول دون غلق الباب، فأغلق عليهما، وصارت طوع يده، وجرى الماء في الأرض العطشى، ولما فرغ منها تركها بين دموع الندم، والخوف من افتضاح أمرها.

انتهـى محروس، وعُدت إلى الغرفـة ألعن غباء أخي الذي رقد على السـرير، ورائحة إبطه الممتلئ بالشَّعر، تكاد تشعرني بالغثيان، فيحاول مداعبتي بأن أتقبل كل شيء، وما يقوله لا يدعو للتعجب؛ بل هي طبائع الأمور، ووصفني بأنني أعيش في عالم بعيد عن الواقع، ويواصل عادته التـي لا تنقطـع بطلب اقتراض نقود، فسـمعت صوتًـا طفوليًّا في الممر ينادي بهمس: حارس، حارس.

بخطوات مرتجفة نحو الباب متجاهلًا اقتراض محروس ومداعباته السـخيفة، أواصل سـيلًا من اللعنات على جنونه الذي توحش، فتحت باب الحجرة لأجد "سـمير مبروك" على كرسـيه المتحـرك، يطلب في

خجـل مفرط أن أُحضر له ماءً من الصنبور الذي أصعد له سـت عشـرة درجـة في نهاية الممر، وأمسـك بِدَلْو الماء، وأسـمع صوت خريرٍ على جسـدٍ داخـل الحمَّـام، فعُدت للصنبور مـرة أخرى من بعـد أن أفرغت الماء (بِطِشْـتٍ كبير) بغُرفة سمير، وجدت باب الحمَّام مفتوحًا، وأمامه سـروالًا أحمر اللون، فركلته بقدميّ، وعرفتُ صاحبته التي سـقط منها عنـد خروجها متعجلـة، وكانت لهنَّ عادة عندما ينتهينَ من اغتسـالهنَّ، وارتـداء ملابسـهنَّ النظيفـة، يحملنَ المُتسـخة بضمها إلـى صدورهنَّ مُتكـوّرة، يسـرنَ متعجـلات إلـى غُرفهـنَّ كأنهـنَّ يخشـينَ أن ترقبهـنَّ الأبصـار، أحفـظ نوع "الماركـة التجاريـة" لسـراويلهنَّ الداخلية؛ لكنَّ معظمها دون علامة؛ بل حياكة يدوية، وطلب سـمير مني أن أضع الإناء على الموقد، فوقفت برهة انتظارا تقديم مسـاعدة أخرى، أقلب بصري في أرجاء غُرفته؛ لكنه شكرني بلُطف، وظل يعتذر عن إقلاق مضجعي، فتبسمتُ: أنا تحت أمرك.

تبسـم بخجـل ويهزُّ رأسـه بأنه لا يريـد الآن شـيئًا، رأيت فـي عينيه اللامعتيـن على ضوء مصباح غُرفته كلمات كثيرة؛ لكنه فضَّل الصمت، يبدو أن سـمير مُتعجل للاسـتحمام لشـيء في نفسـه، وراودني شـعور غريب بأن أحمل جسده الهزيل الذي توقف نموه منذ سنوات؛ لأسباب بالغدة النخامية، أخلع ملابسه عنه، وإدخاله الحمَّام لغسل جسده جيدًا، خشـيت أن أعـرض عليـه رغبتي، فتسـبب له ضيقًـا وحرجًـا، فابتلعتُ أمنيتـي التـي لمَّحت بهـا، وأودّعه، فيسـتوقفني بصوتـه الطفولي: ليس الآن يا حارس.

انصرفت إلى غرفتي، ويبعث حسيس ظلام الممر في صدري شعورًا بالكآبة، تنفتح نافذة من الأفكار السوداوية تراودني كشخص ماكر ابتلعته مع صوت شخير محروس، وقصة أُمِّ سامية معه تسيطر على حواسي كلها، فكيف، ولماذا؟ مليون سؤال ورد بخاطري، أخاف أن أُقْدم على تحليل الماس؛ لأني أعلم النتيجة الصادمة لي، فلعنة البريق هي لعنة إصابة رأسي، مثل لعنات كثيرة أشرُّها هي لعنة السكن بالغُرف.

# (3)

مر أسبوع، ولـمْ ألتقِ بأُم سامية، بعدما تحدث معي محروس عن هذا الحادث الذي تيقنت من حدوثه لتصرفاتها الغريبة، فهى تختفي عن الناس جميعًا، ولم تجالسها أُمي عند مدخل الغُرف، تلتزم حالة من الانطواء والعزلة لم نتعودها منها، وتشكك البعضُ في مرضها، وذات يوم خرجت أُم سامية من الحمَّام ترتدي جلبابًا أسود، وعلى رأسها طرحة سوداء، رأيتها عندما كنُت خارجًا في الصباح في عَجَلة من أمري، بعد أن رفض محروس مصاحبتي إلى مستشفى قصر العيني؛ للاطمئنان على عيني التي تؤلمني كثيرًا، ألحَّت عليه أُمه؛ لكنه أصرَّ متعللا بأن عنده عملًا، منحها في هذا اليوم مبلغ خمسين جنيهًا، واشترى لنفسه لباسًا جديدًا، وبدأ يحمل في جيب بنطاله علبة سجائر كاملة، ولمْ يَعُد يشتري جزءًا من علبة كعادته، ويأخذ سجائر الكيف من السائق دون مقابل كما أبلغني، لكنني أعلم أنه يكذب؛ لتجميل الصورة المشروخة.

حين عودتي ساعة الغروب، أحمل بين أناملي كيسًا مكتوبًا عليه اسم الصيدلية، وفي داخله دوائي السائل، عبارة عن زجاجة قطرة تشعرني بألم عند استعمالها، وجدت زحاما كبيرا حول سيارة بجوار مدرسة يوسف السباعي، وضجيج يُشبه طنين زنابير تهاجم كرمة عنب، يتزاحم السرِّيحة حول السيارة، ومعهم سكان بدرومات أخرى، والذين يسكنون خلفنا، وبعضٌ مِن الذين أراهم أمام مسجد سيدي إسماعيل،

يزاحم بعضهم بعضا، توزع السيارة بعض الصدقات: أكياسًا بلاستيكية بهـا عـدد اثنين كيلـو أرز، ومثلهما سُـكَّر، وزجاجة زيـت طعام، وعدد واحـد كيلو مـن بقوليـات الفـول، والعـدس، والفاصوليـا، فغضضت الطرف عندما شاهدت وُثوبَ الريس عبد الحكيم على ظهرها؛ ليشارك الناس مهرجان التسول؛ لأنه يحسب التوزيع حقًّا مكتسبًا له؛ لأنه يعرف فقراء المنطقة، وبصوت أجشّ:

- يا حارس.

ألتفـت إليـه، فأجـد كيسـا مقذوفـا تجاهي، وخلفـه ابتسـامة كبيرة، وإشـارة من يده بأن آخذ الكيس، وأواصل السـير، الكيس يشـبه أكياس عـمّ عرفة الغريب، التـي يحملها كل يوم، والذي هـرب من أمامي نهار اليوم داخل مستشـفى قصر العيني، طلبت من الرجل الذي يقف خلفي بـأن يحفظ لـي دوري في هـذا الطابـور الطويـل، أمامي عـدد كبير من المرضى؛ فيمكنني أن أتجول؛ للبحث عن كوب من الشاي، أو البحث عـن اللا شـيء، فأحببتُ أن يراني الناس في غير ثوب ماسـح الأحذية، ووجدته نائمًا على سـرير كبير كاشـفًا عن فتق بارز ببطنه، وشكل الفتق غريب جدًّا، ونافذة الزجاج تكشف عن عدد من الطلبة يرتدي كلٌّ منهم معطفًا أبيض يلتفون حول السرير، وعمّ عرفة هو الحالة التي يشرح لهم أسـتاذهم عليها، وقفت شـارد النظـر في حجرة الكشـف، وقتًا لا أعلم مقـداره، وجدت عيـن عمّ عرفة الغريب تنظر إلـيَّ برجاء، خرج الرجل من باب بعيد عني؛ لكنني ظللت أراقبه وهو يبتعد عني شـيئًا فشيئًا، بعد

أن دسَّ يده بجَيْب جلبابه؛ يُخفي شيئًا منحه إياه الموظف المسؤول عن إدخال الحالات للأطباء، وصار يتخفى خلف المرضى الذين اكتظت بهم الطرقات أمام غُرف الكشف، وتذكرت كلمات والدي عنه: أنه شهير هنا بـ"عم عرفة أبو فتق"، يبدو لي الرجل كأنه يُخفي سرًّا عظيمًا.

عُدت إلى مكانى فى الطابور، وطال انتظارى؛ حتى تسرب الملل إلى داخل صدري، ظل الدكتور يفحص عيني، ثُمَّ همس لطبيب ثانٍ بجواره، فجاء؛ ليفحص، والثالث، والرابع، تتشابه معاطفهم البيضاء، ولكن تشخيصهم لتحديد داء عيني يختلف، يتبادلون الكلمات باللغة الإنجليزية، فهمت من بعض المصطلحات بأنني مُصاب بداء "الترخوما": (الرمد الحُبيبي)، فسطَّر على ورقته دواءً وحيدًا قطرة للعين، وطلب مني بأن أعاود الزيارة بعد شهر من اليوم، والاستمرار على هذا الدواء السائل.

أحمل شنطة الصدقة التي أعطاني إياها الريس عبد الحكيم؛ متجهًا إلى غرفتنا صدفة ألقت بي في جُب سحيق القعر، فوجدت نرجس متزينة كعادتها كما كنت دائمًا أراها؛ لكن صدمتني عندما رأيتها تركب مع ياسر المنزلاوي سيارته الخاصة، يرتدي بذلة غالية الثمن، فعامان ونصف العام غيَّرت كثيرًا من بنيانه الجُسماني، فصار ذا جسد ضخم، ولا أعلم إلى أين يصطحبها؛ ياسر الذي قرر بأن يواصل حياته في تجارة أبيه داخل محل لبيع السيراميك بشارع المدارس، محل كبير على واجهته لافتة الحاج صلاح المنزلاوي للسيراميك.

مرت أعوام، وأنا أعمل ماسح أحذية، انقطعت علاقتي بالماضي إلا نرجس، التي أتابع أخبارها عن بُعد، فقد التحقت بالجامعة بكلية الآداب قسم اللغة العربية، كما كانت تحلم بأن تكون أديبة، ورأيتها أكثر من مرة؛ لكنني كنت أتخفى قبل أن تقع عيناها عليَّ، وتُبصر جلباب والدي البالي، وصُندوقي على كتفي، أهرب منها؛ أختفي كأنني مذنب يحاول أن يخفي هذا الذنب الذي يطارده كلما دق قلبه، والذي يدقُّ وحيدًا في صمت. اليوم هول الصدمة جعل ساقيَّ تنغمسان في الرمال المتحركة، فتوقفت؛ أشاهدهما عن بُعد، فالرؤوس الخمسة لا تزال تتصارع على جسدي الهذيل، فاسودَّ وجهي، واختفَتْ ملامحه، أخشى أن تبصرني نرجس، أو يواصل ياسر عرقلتي بحبل الرذائل غير المنقطع، فقررت أن أكون مشاهدًا متواريًا خلف جدار الانهزام.

وضعت حقيبة الصدقة خلف باب غرفتنا، أُخبر أُمي بأن هذه أمانة تخصُّ الريس عبد الحكيم، جلست على سريري، وطمأنت أُمي على ما قاله لي الطبيب، وظللت وقتًا طويلًا مشغول الفكر، لا أستطيع أن أصدق ظنوني التي داهمَتْ رأسي منذ أن رأيت نرجس، أُمي لم تتوقف عن الحركة داخل الغرفة، منشغلة في إعداد وجبة الطعام لي، تزيد كلماتها جسدي اضطرابًا بأن ابنة إبراهيم جارنا، خُطبت إلى ابن خالتها، وبعد وقت لا أعلم قدره من الصمت، كصمت الأرض التي في جوفها بركان، تطلب مني بإلحاح مفرط أن أتناول وجبة العشاء، فتناولت لُقيمات، ولمْ أتذوق طعم هذا المرق الذي ترقد في داخله قطعة الفراخ، أعدَّتها لي خصيصًا؛ لأنها تحمل برأسها ثقافة الجدود

أن المريـض يجب أن يتنـاول لحومًا، أو طيورًا، وهما كفيلَان بشـفائه، اتكأت على سريري، أو نصف السرير؛ لأن محروس شريك لي.

تساءلت هل يُحاسب الإنسان على كل ما يتفوه به؟ فكلمات نرجس منذ سنوات أسمع صداها في أذني، إنها تبغض ياسر أكثر من أي شيء في الدنيا، فهل هو بُغض مرحلي؟ ويبدو أن قلوب بعض النساء مثل المنطاد تتسع كلما أتت ظروف موائمة، أتقلب على جمر الغيرة والبُغض، أغار عليهـا، وأبغض ياسـر، ولكنهما الآن صـارا حبيبين، يشـاركني صوت المضجـع "أَلَـمْ تبصـر جمالهـا الليلـة، والطريقـة المبالـغ فيهـا لوضع زينتهـا؟ فالمـرأة لا تتجمـل إلا لرجـل تُحبـه"، فانتفضـت أهزُّ رأسـي:

– إنها تُحبني أنا، مستسـلمًا: لكن بأيّة حيلة تحتفظ بهذا الحب، وأنا قطعت بمعطيات الواقع أواصر الأمل المنتَظر، يا نرجس هل توقف ماء النيـل داخـل قلبكِ في زمن الرأسـماليين؟ فلا أجد للمـرء عيبًا أكثر من الفقر؛ لأنه فضوح.

انتفضـت مـن على سـريري، وسـرت إلى البـاب ببضـع خطوات، أترقب جسـد أمي الراقد بعد أن عادت بكيس الصدقة الذى منحني إياه عصر اليوم الريس عبد الحكيم، ورفض أن يأخذه، وقال لنا:

– هذه من فضل الله، فلنقبلها على الرحب، وسعة الصدر.

ولا يـزال المَنـيُّ الجـاف، وتلـك البُقـع علـى سـروالي الداخلـي، أتحسسـها بأناملـي مـن جيـب جلبابـي الأيسـر المفتـوح، منـذ حالـة القذف، والقشـعريرة التي اجتاحت جسدي وسـط زحام المتزاحمين،

عند عودتي من مستشـفى قصـر العيني داخل حافلة النقـل العام، أنتظر لتُتاح لي فرصة للاغتسـال، فاليوم موعد السرِّيحة للغسيل، ولن يبرحوا الحمَّام قبل منتصف الليل، تبدو قصص محروس الخيالية أنها سيطرت علـى عقلي الباطـن فظللت أحتكُّ بمؤخرة تلك المـرأة داخل الحافلة، تتصبب مسامي عرقًا، وترتعش أطرافي؛ لكن مع تزايد الازدحام، وشدة الاحتكاك هدأت حواسي كلها.

طرقات في جوف الليل على باب حجرتنا، أتمنى أن يكون أحدهما سـمير مبروك، أو سَـامية، لا أحمل في يدي ساعة؛ لكن سمعت صوت المذياع من إحدى الغُرف المجاورة يُعلن انتصاف ليل القاهرة، توجهت إلى الباب دون أن أسأل مَن الطارق، ولمْ أتوقع ما هو أسوأ مما أبصرته اليوم من "نرجس"، فأجده ناظرًا نحو الأرض في خزي بصوت منهزم:

– مساء الخير يا حارس.

# (4)

كانـت تحيـة عـمّ "عرفة الغريـب" الذي طلـب أن يجالسـني بعض الوقـت! انصرف في هدوء إلى غُرفتـه كما جاء، ومعه صندوق كبير من الألغـاز عن نفسـه يفتحه أمامي، هـذا الرجل غريب الأطـوار، وأعدَّت لنـا زوجتـه الصامتـة كوبَيّ الشـاي، انصرفت بعيـدًا عنا في هـذا الركن بجـوار الموقـد، وهي تُشـبه قطعة أثاث داخـل الحجرة مُهملـة، تركتنا نتبـادل النظـرات فـي صمت لبرهـة، ولـمْ يَطُل صمتـي كثيـرًا، فأقصر الطـرق للوصـول إلى المبتغـى هو المصارحـة، فنظرتُ إلـى عينَيّ عمّ عرفة الضيقتين؛ لكنهما حادتا النظر، فوجدته شاردًا إلى فضاء بعيد عن الغُرفة التي نجلس بها، فهمست لأحْطم جدار الصمت:

– هل تخشـى أن أبوح بما رأيته اليوم داخل المستشفى؟ فاطمئن لم أُبصر شيئًا!

ارتشف رشفة شـاي، وشـعرت ببعض الطمأنينة ترتسم على وجهه بعد أن أكَّدتُ له بأنني لم أتفوَّه بسِرِّه لأحد.

وبصـوت مُنكسـر بنبرة تحمل الاستسـلام المُطلق: لم أعُد أخشـى شيئًا في الدنيا يا حارس.

قالها الرجل واسـتدار بوجهه إلى زوجته، التـي تجلس منزوية على نفسـها، شـعرت أنه يبلغها رسـالة لـم أفهم معناهـا، وكما لم أفهم سِـر

استدعاء الرجل لي إلا خوفه بأن أفضح أمره، ظل يُكمل حديثه في حالة من اللا مبالاة التي يشعر بها:

– الدنيا يا حارس يا بُني أخذت أكثر مما أعطتْ.

قال بمرارة عن مهنته القديمة: إن أول مَن امتَهَن البويجي في مصر هم الإيطاليون والأرمن، منذ أن كان بالقاهرة في أربعينيات هذا القرن ثلاثمائة محل لمسح الأحذية، والآن أُغلقت المحلات، وأصبح آلاف من الناس ذات أعمار مختلفة يتجولون بشوارع العاصمة، ويتسكعون بين المحلات والمقاهي كأنهم ينافسون الشحاذين، وعلى لسانهم كلمة واحدة: "تمسح يا بيه؟".

أشعر بنبرة ألمٍ تجتاح قلب الرجل، وتسيطر عليه مشاعر الانهزامية، ويبدو أن لعنة هذه الغُرف قد أصابته، فقام من سريره، وجلس على ركبتيه، ومدَّ يده تحت سريره، فأخرج صندوقًا يُشبه صندوقي، بتأمُّلٍ، ونظرة حائرة إلى الصندوق؛ كأن الرجل يُقرُّ بأن هذا الصندوق هو قصة حياته، ومرر كفه عليه مرتين، فخُيل لي بأنه يتحسس صفحات كتاب، ويقرأ ما بين سطوره: خذ هذا لك، أنا مَن منحت والدك صندوقه، وعلَّمته كيف يعمل بُويَجيًّا عندما أتى من البلدة، ولم يجد عملًا بسبب مأساة مرضه.

هززتُ رأسي مُترحمًا على والدي، وشعرت بنبرة تهكُّم تعلو صوت الرجل لهذا المعروف الذي أسداه لوالدي، وصمتُّ في حيرة، همسَ يثني على معدني، ووصَفني بأنني أصيل حتى النخاع؛ ممَّا رآه مني

من حمل صنـدوق والدي، ولم أخشَ الناس، ولـم أترك والدتي تعمل خادمة بأحد البيوت، وكيف عرف هذا السر الذي أخفيناه عن محروس أخـي؟ يبـدو أن الجـدران التي تفصـل الغُرف هـي جدران شـفافة لما يحـدث خلفها كله، ثم أشـار إلى صندوقه: هـذا الصندوق مصدر رزق كبير إن أحسـنت اسـتخدامه، كان سـببًا في زواج خمس بنات، وجعل شـريف ابني يحمل شـهادة جامعيـة، وأصبح رجـلًا مرموقًا، تحجرت دمعـة في عينيـه، وأكمل قصته بشـيء من المـرارة، ونظـرة خاطفة إلى نافـذة الغرفـة الحديديـة التـي نستنشـق منها غبار السـابلة في الشـارع، وقطة سـوداء تتوقف أمامها، وتتمسـح بالشرفة الحديدية: "بِسْ بِسْ يلا غـوري"، ينهرها، فتنصرف، وحكى الرجل دون أن يهتم بوجود زوجته التي لم تتفوه بشيء إلا نظرات يأس تتبادلها بيني وبين زوجها.

ظل سـنوات يعمل ماسـح أحذية داخل القاهرة، يتنقل بين الدروب والشوارع من المقاهي إلى المؤسسات الحكومية، ويجلس في الأسواق لا يكلُّ، ولا يملُّ؛ طلبًا للرزق، ويذهب كل شهر لزيارة أولاده في مدينة الزقازيـق، ممتلـئ الجيوب، يشـترى لهم ما يريـدون، تمر أيام الشـقاء والعمل دون حسـاب؛ فهي سـريعة التعاقُب، كبرت البنـات، وتزوجنَ الواحدة تلو الأخـرى، وكل واحدة منهنُّ لها داخل هذا الصندوق قصة كبيـرة من مواصلة العمـل والبحث الدءوب عن نعال الناس، حتى أوفر نفقـات زواجهنَّ، وشُـغلتْ كلُّ منهنَّ ببيتها، وانتهـى الابن من التعليم، وصـار موظفًا فـي الحكومة، ومنـح عرفة ابنه: شـريف شـقته؛ ليتزوج فيهـا، ودفـع له مبلغًا من المال سـاعده فـي أمر زواجه، وجـدَّد له أثاث

الشـقة، وبعد مرور أيام من الزواج طلب الابـن من والده بأن يترك هذه المهنـة التـي تجلب عليهم العار؛ ليتولى هو الإنفـاق على البيت، وكان هذا الرأي بإجماع إخوته، فلبَّى رغبتهم جميعًا، وصار الرجل كأنه قطعة أثاث قديمة في البيت، بعد رحيل أُم شريف زوجته، وهو يجلس وحيدًا؛ ينتظر الصدقة التي كانت تُقدم له على مضضٍ، وذات ليلة سـمع زوجة الابن تقول لزوجها: إن راتبه لن يكفيهم، وهذا العجوز يقاسمهم الرزق.

مـرت الأيـام، فاحتالـت علـى زوجها بأن والـده العجـوز يجب أن يبحث له عن عروس، أنه ينظر إليها بعينين يكسوهما الحرمان، ويتطلع إلى مفاتن جسـدها، وهي امرأة تجيد جيـدًا قراءة نظرات الرجل، وكان هـذا القول منها مصحوبًا بالدموع، ولا تسـتطيع أن تأخذ راحتها داخل بيتهـا من نظراته الجائعة. اجتاحت الابن موجة من الغضب، اقترب من أبيه، فدفعه بكلتا يديه وتطاول عليه بلسـانه أمام الناس، وسـقط الرجل على الأرض، فقرر الرحيل دون رجعة.

رحل إلى هنا، وظل سـنوات في العزلة التامة يجتر أحزان الماضي، وتزوج بتلك المرأة التي لا تريد من الدنيا شـيئًا غير أنها تعيش مستورة، وتبحث عن ظل رجل، فكان لها ظِلًّا، وظلَّلَت عليه بحنان لم يجده في أبنائه، كما قال وهو يجفف دموع عينيه.

لا أعـرف السـر الذي جعل عـمّ عرفـة الغريب يحكـي قصة عقوق أولاده معه! فالرجل كما قال لي: إنه يُحبني جدًّا؛ على الرغم من صمته تجاهـي، أو تجاه الناس جميعًا، حكى عن سـر الفتق الذي يتقاضى من

طلبة كلية الطب مبلغ عشرين جنيهًا، أو ثلاثين؛ للفحص في كل مرة، ومنذ سنوات يمارس استغلال المرض استغلالًا على حد قوله: هو الأمثل، فقد ذهب لإجراء الكشف عن ورمٍ في بطنه، وتحول الأمر لعملية تُدر عليه بعض الجنيهات بعدما توقف عن حمل صندوقه.

أصغيت لحكاية الرجل الذي يوصيني بأن أدخر شيئًا للزمان، ولم أجد ما أتفَوه به غير أنني أشد من أزره؛ لفجاعة أمره، سرت في الممر الصامت الساكن أُجرجر قدميَّ المثقلتين إلى الحمَّام، جلست القرفصاء وقتا طويلا دون قضاء حاجتي، ولم يكن عندي حاجة لقضائها، تتصارع الأفكار بهذا الرأس المسكين، الذي ضُرب الليلة بمطرقتَيْن كبيرتَيْن جعلتاني غير متزن في كل شيء، أعود إلى الحلم الذي راودني بأنني داخل غُرفة مظلمة أتحسس الأشياء المُكدَّسة بداخلها، ورائحة حبر مسكوب، وخشخشة صوت أوراق، أسير ببطء فهَوَت قدماي في حفرة، أتشبث بأكوام الورق المرصوصة، أستيقظ على هذا السقوط، ظل هذا الحُلم يراودني في كثير من الليالي.

أشعر بألم في قدمي، أتململ أثناء جلوسي القرفصاء داخل الحمَّام، تتعجل طرقات على الباب خروجي الذي طال؛ لكنني ظللت بعض الوقت مع ذكرى الحُلم، خرجت فلمْ أجد إلا الممر الخالي، يبدو أن الأشياء كلها يمكن أن تتأجل إلا قضاء الحاجة، وألم المُصران الغليظ جعل صاحب الطرقات، يجد البديل في سكون الليل، أنظر إلى الممر، فالغرف أبوابها كلها موصدة، هذا الممر شبيه بممر إلى حجرة الإعدام،

أشـعر أن الجدران المحيطة تتسـلق عليها ثعابين تريد الانقضاض عليَّ تصوب رؤوسـها السـوداء تجاهي، أسـمع صوت كَرْكَبة، أو خشخشـة داخل الحجرة المغلقة -حُجرة العفاريت- قشعريرة تجتاح كياني.

أقترب ببطء شديد تجاه الباب، صوت قِطٍّ مختنقٍ بين أشياء الغُرفة، فأشعر بين اللحظة والأخرى أن شيئًا خرافيًّا ضخمًا، سوف يحطم الباب، وينقض عليَّ؛ ليفترسني، فوقفت مضطربًا، عيون ترقُبني وأنفاس حولي أسمع زفيرها، وما سِرُّ هذه الغُرفة التي سمعت عنها كثيرًا بأنه يوجد بها عِفريـت من الجن؟ إنها غُرفة تُشـبه صندوق عمّ عرفـة؛ مُمتلئة بالألغاز التـي تشـعرني بالخوف، وقِيل إنه قُتل فيها شـخص قبـل مجيئنا، وآخر قال: حُرقت بها سيدة.

مـا قِيل كلـه عن تلك الغُرفة يـدور بخلدي، أنظر إلـى الأبواب التي تطـلُّ على الممر، كلها رُفعت سـتائر القماش التـي تُعلَّق على الأبواب نهـارًا بخيط رفيع من أعلى، وتُرفع ليلًا؛ ليحل مكانها باب خشـبي، إلا غُرفة عمّ عرفة الغريب فلمْ يكُنْ لها إلا باب خشـبي موصد ليلًا ونهارًا، وكانت غُرفة الأسـتاذ رأفت عليها ستارة سميكة قبل رحيله؛ لكن غُرفة أُم سـامية تُشبه حال غُرفتنا، وغُرف السـرِّيحة؛ بالِيَة أشياؤها، وتدثر كلٌّ بثـوب واحد، وهو السـكون خلف جـدران تفوح منها رائحـة القنوط، وهمهمات خفية تتسرب من شقوق الأبواب، وقد بدأ يهتزُّ هذا المِصباح الكهربائي الذي يُعَلق في منتصف الممر، فاهتزَّت معه الظلال المحيطة بي كلها، وأشعر بشيء يلكزني في ظهري، وصوتٍ جعلني أفزع.

# (5)

يقهقه محروس ممَّا فعله معي في الممر أمام الغُرفة المغلقة، عاد كعادته متأخرًا، فوجدني أقف أمام الغُرفة المغلقة شارد الذهن، وأنصت لتلك الخشخشة التي أسمعها داخل الحجرة، فاقترب مني دون أن أشعر بعدما انشغلت بأمر المِصباح، الذي يهتز إثر رياحٍ تهبُّ من الشارع عن طريق درج مدخل الغُرف، فحاول إخافتي، ففزعتُ، ولم يجد مني غير بعض اللكمات على جسده، فيضحك، ويخفي وجهه بين ساعديه، واضجع كلٌّ منا على نصف السرير، وأخرج من جيب سرواله حافظة نقوده، وأشار لي بأنه يمكن أن يُقدم العون، وإن أردتُ أن أقترض منه نقودًا، فاستدرت على سريري، وهمستُ له:

- من الممكن أن تأخذ رضا والدتك، ومحبتها.

فهزَّ رأسه في صمت، مرت دقائق لم أسمع إلا صوت شخيرٍ مزعجٍ، في صباح اليوم التالي وقفت مترددًا بين أملٍ، وخيبة، ورجاء أمام أحد البنوك، أترقب بعينين فاحصتين، سألتُ رجل الأمن:

- أين طارق بك؟

خرج عليَّ شاب يرتدي بذلة رمادية اللون أنيقة، ويبتسم في وجهي، وتحشرجَتِ الكلمات، وأنا أُبلغه بأنني من طرف عمّ عرفة الغريب، انعقد جبين الشاب، ولمْ يتذكره، فواصلتُ كلامي بصوت منخفض:

– أرسلني لحضرتك عرفة ماسح الأحذية، وأن آخذ مكانه؛ لعلِّي أجد لي لقمة عيش هنا.

تبسم الشاب مُرحبًا بي، يوصيني أن أبلغ سلامي للرجل، وطلب مني المرور كل صباح.

وقد أبلغني عمّ عرفة أمسِ أنه سوف يخبرني عن مكانٍ واسع الرزق ممتلئ بالبكوات، وبالطبع صدَق قولُه، ومنحني كلُّ صاحب زوج من الأحذية جنيهًا، حين كنتُ أتقاضى ربع جنيه أمام مسجد سيدي إسماعيل، ونصف جنيه من أصحاب المحلات. وانصرفت من البنك إلى بعض الهيئات الحكومية، ومررتُ بشوارع منطقة الكيت كات، الطريق مزدحمة، وأقلب بصري بين المحلات والجميلات من النساء، اللاتي تزدحم بهنَّ الشوارع الضيقة، فحمدت الله على رزق اليوم، وتوقفت أمام مسجد ناصر بشارع المدارس، دخلت أقضي حاجتي به.

تعلو المآذن بصوت أذان الظُهر، كان الوقت صيفا، والجو حار جدًّا، ولم أكن محافظًا على الصلوات، لكن لم أستطع الخروج من المسجد في الوقت بين الأذان وإقامة الصلاة دون تأديتها، وشمّرت عن ساعديَّ؛ لكي أتوضأ، وأقف بين المصلين بجلباب والدي الذي بدا باليًا، فقررت أن أحيك جلبابَيْن جديدَيْن.

انتهينا من الصلاة المكتوبة، واتكأت بظهري على عمود خرساني، وأنظر إلى قدميَّ اللتين تشققتا، وأزيل عنهما بعضًا من الجلد الميت المتيبس من عناء السير، سمعت الخطيب يجهر بصوتِه في المصلين،

شاب يُدعى يوسف قائلًا: "بعد الصلاة والسلام على النبي، بدأ الإسلام غريبًا، وسوف يعود غريبًا فطُوبَى للغُرباء، والإسلام لم يكن غريبًا في وقتنا، ولم نتنبأ بالأجيال التي يتغرب فيها؛ لأن الدين -والحمد لله- لا يزال قائمًا، ولا يزال ينتشر في بقاع الأرض، حتى يظهر المَهدي المنتظر، وليس مَهدي الروافض، وسوف يكون من أمة حبيبنا المصطفى -صلى الله عليه وسلم- يصلي بعيسي ابن مريم صلاة الفجر حين نزوله من السماء، وهذا دليل على أن الدين لم يكن غريبًا. "بدأ الإسلام غريبًا"؛ هذه الجملة من الحديث الشريف أصبحت عذرًا، وحجة مَن لا حجة له، وكأنه يقول انتهى الدين الإسلامي، ويعلنها بألا نأمر بالمعروف، ولا ننهَى عن المنكر؛ لأننا في عصر انتهى فيه الإسلام، وللأسف نجد من أبناء الإسلام مَن يتقاعس عن نصرة الدين، ولو بكلمة حق، ويذهب للحديث الشريف؛ ليضعه حُجة في غير وقتها، لتقاعسه عن نصرة دينه الذي خُلق من أجله، والغربة يا إخوتي تتجلى في سلوكيات المسلمين، والتي هي بعيدة كل البُعد عن الدين الحنيف، وتتنافى مع تعاليمه السمحاء، وهذا هو قول الله -تعالى- في الذين يَرْتدُون عباءة الدين، ولكن لا يسلكون منهجه، وهم في المقام الأول موظفون، وليسوا رجال دين متطوعين لخدمة الدين، وهؤلاء خادمو النظام الحاكم قبل الدين الحنيف، فاللعنة عليهم وعلى مَن ولَّاهم، ومَن يتبعهم فهالِك، ويلبسون ثوب الحق المراد به باطل.

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾. قيل يا رسول الله، مَن الغرباء؟ قال: "الذين يصلحون إذا فسد الناس"، فنجد اليوم مصداقًا لقول الرسول ﷺ: "أن القابض على دينه كالقابض على جمرة من النار"، يتهمونه بالرجعية والتخلف، ويسلّطون عليه الزبانية، لوضعه خلف جدران سجونهم، التي لن تحطم عزائمنا، وتخرس ألسنتنا عن قول الحق، وأوصيكم ونفسي بتقوى الله".

حملت صندوقي فوق كتفي، وكلمات الشيخ يوسف لا يزال صداها في أذني، واختتم كلامه بأن مَن يُرد متابعة الشيخ؛ فليحضر إلى مسجد "السلام" بمنطقة البصراوي. أشعر بشيء من الراحة تتسلل إلى صدري وتساءلت: هل خلقَ اللهُ الفقراء للعذاب، أم للاختبار في الأرض؟ ولمْ أجد إجابةً غير أن أواصل سَيري في ترقُّب لِما يدور حولي، وذهبت إلى السوق أدور حول المنطقة، فلمْ أجد أُم أحمد، أو صديقي مُرسي بائع الجرائد، ووجدتُ الصُّحف على الأرض، هو ذهب يبحث عن رشفة ماء كما أخبرني بائع الفاكهة، الموكل منه حراسة الجرائد، وتصفحت العناوين الرئيسة لبعض الصحف الحكومية، فلمْ أجد جديدًا، واتجهتُ إلى غرفتي، أشعر بأن الدنيا توقفت عند هذا الأمر، وسيظل الناس جميعًا على أحوالهم التي خُلقوا عليها، فلا دوافع للتغيير، لكن التغيير السريع الذي يحل بجارنا الأستاذ: رأفت يجعل دوافع من الغِيرة تتحرك داخل صدري.

أسمع صوتًا ينادي عليَّ من الممر أمام ستارة حجرتنا، بعد أن تناولنا أنا وأمي وجبة الغداء، طلبت مني شيئًا عجيبًا، أن أخرج الليلة من الغُرفة عندما يحضر محروس أخي، لأتركهما وحيدَيْن بعض الوقت، ولم أُعِر الأمر اهتمامًا، وتقدمت إلى الباب لأجد طارق ابن الأستاذ رأفت يقول: إن والده يريد مقابلتي، ويطلب مني إحضار صندوقي معي، فأومأت برأسي بالموافقة، وأنني سأحضر له عند الغروب، وانصرف طارق بعد أن هنَّأته؛ لحصوله على الثانوية العامة. مرت دقائق أسمع صوت سامية تمر أمام باب حجرتنا، وتنادي بصوت مرتفع: كيف حالكِ خالتي أم محروس؟

أمازحها، فرددت بديلًا عن أمي، التي ردت التحية باقتضاب؛ لانشغالها بشيءٍ عكَّر صفوها، فضحكت سامية، وتطلَّ برأسها من خلف الستارة التي تعلَّق على الباب، ترتدي ترينجًا نصف كُم، وتضع على كتفها فوطة، وعلى وجهها أثر النوم، وتمازحني، فأردُّ مزاحها بمزاحٍ آخر، فتسألني عن عملي، وأسألها عن عملها؛ لنطمئن معًا، وأواصل مداعبتي لها، وأنا أتفحص نهدَيْها المحشورَيْن تحت ملابسها الضيقة، وحمَّالة صدرها المشدودة بقوةٍ عليهما: (يا بخت الذي تكونين من نصيبه).

تضحك سامية تهمهم: (الحقيقة قول يا قليل البخت).

لم تشاركنا أمي هذا المزاح الذي تعودته مع سامية، أشعر تجاهها بأنها ابنة بلد طبعها الشهامة، ولكن دومًا تختتم حديثها معي، بأنها ذات فقر مُدْقع، ولن يرضى بها غير فقير مثلها، وحتى هذا الفقير قد قارب

حبـل الأمل على الانقطاع لمجيئه، شـعرت أن قطـار الزواج عندما يمر أمام أعينهنَّ، فيمرُّ قبلها على أجسـادهنَّ؛ ليحطم أشياء كثيرة، فكل يوم يحطـم جديدًا، (مَصْمَصَت أمي شـفتيها)، وتهمس عندما رأت سـامية فاقدة الأمل: الفتاة بعد سـن العشـرين مثل ثمرة نضجت، فكل يوم يمرُّ يجعلها تفتقد جزءًا من نضارتها وحلاوتها.

لـم أفكر قط فيما يريدني الأسـتاذ: رأفت، وطلبـه إحضار صندوقي معي، همهمتُ بدون أدنى اهتمام: وليكُنْ.

حملـت صندوقـي على كتفي، التـي قاربت على الانحنـاء من كثرة الجلـوس لفتـرات كبيـرة، أدقق النظـر أثناء العمـل؛ فأضطـر للانحناء أكثـر بعد ضعـف النظر الذى يداهمني، وبصعودي إلى أعلى أتحسـس درابزيـن سُـلم العمـارة، فأمسـح مخـاط أنفـي بكُـمّ جلبابـي الأيسـر، أتحسـس رزق اليوم في جيبي، فموظفو البنك جعلوه أكثر. وأتسـاءل: هل من الممكن؟! أسـتطيع الصعود، ولديَّ قدمان ثابتتان، وكل خطوة أخطوهـا تُقربني نحو الهدف، فلمـاذا لا يكون معي مِفتاح لأحد أبواب هذه الشُقق، وأتطلع برأسي إلى الأعلى، وبيني وبين شقة نرجس طابق، وأشـعر أن شـيئًا ما بدأ يتغير في حياتي، وتيقنت وقتها أن الفقير هو عبدٌ للعادة والممارسة.

# (6)

صافحني الأستاذ رأفت بأطراف أصابعه، وشعرت بشيء من التكبُّر، أو كما خُيل لي، وهمست بسَريرتي: يبدو أن أصابع يدي المتسخة تُقلق بعضهم.

كعادته مهذبًا عندما يتحدث لأحدٍ طلب يستأذنني، هل من الممكن أن ألمع لهما أحذيتهما: هو وطارق؟ وأبدأ بهذَيْن النعلين؛ لأنهما في عجالة من أمرهما للذهاب إلى موعد مُهم، الرجل مبالِغ في الاهتمام بموعده المصيري على حد قوله، ويعدني إن حقق الله مطلبه؛ فسوف يحضر لي هدية كبيرة، فهززتُ رأسي مبتسمًا ابتسامة باهتة، وأدعو له بأن يكون التوفيق حليفه، جلست على السجاد المزركش بألوانٍ عِدَّة، بدأت عملي أنظر بطرف عيني إلى النعمة الواضحة من آثاث فاخر، وملابس غالية الثمن، وعلى الرغم من بريق النعم عند رأفت وغيره، فقد تعوَّدَت نفسي الحرمان، فلن أنظر بعين حاسد، أو ألم المَحروم.

مرت دقائق، أحضرت أُم طارق طبق حلويات متنوع الأصناف، تُقدمه لي مصحوبًا بكوب ماء بارد، وتلك السيدة الجميلة من أجمل السيدات اللاتى رأتهن عيناي، يفيض من وجهها نور الإيمان، فهى السيدة الوحيدة التي تلصصتُ عليها صغيرًا بصحبة محروس، تنتابني حالة من ضيق الصدر، وعلى الرغم من ذلك؛ فإنني أشعر بالمتعة عندما

أشـاهد لوحـة جميلة من إبـداع الطبيعة، التي لا يضاهيهـا أيَّة خيالات، فهـل لا يزال جسـدها على حالته مـن النقاء مثل: البلـور، أم العيش هنا زاده نقاءً؟ يقينًا أنها أصبحت تستحم أكثر من مرة في اليوم الواحد، دون انتظار دورها لدخول الحمَّام.

تبسـمت في هدوء كعادتها، تسـألني عن والدتي، وعن حالي، وعن أخي، فأجيـب بالحمد لله، أفحص بطرف عينـي طبق الحلويات الذي أحضرتـه، فتدعونـي أن أتناول الحلوى، فهِي مِن عمـل يديها، وارتدى الأسـتاذ: رأفت بذلـة أنيقة، طلب حذاءه، ورائحـة العطر الجميل تصل إلى أنفي، وما زلت أمارس مَهام عملي، تواصل سلسـلة الظهر الفقارية الانحنـاء، حتـى كاد وجهي يلامـس صندوقي، كأنني أجلـس متكورًا، فذهبـت ميرفت بالحـذاء إلى أبيهـا، كانت داخل غُرفتهـا، أتاها صوت أُمهـا بأن تذهـب إلى والدها؛ لتُلبـي احتياجاته، وخرجـت ميرفت التي أخذت من أمها كثيرًا مِن الصفات الوراثية، فهمسـت لي مبتسـمة بأدب جَمّ: كيف حالك يا عم حارس؟

يسـتأذن رأفت ومعه ابنه طارق للخروج في عجالة، وعادت ميرفت إلـى حجرتهـا، وارتفع صوت أغنيـةٍ من حجرتها، جلسَـت بجواري أُم طـارق تشـدُّ من أزري، بأنها قد عاشـت أيامًـا جميلة بجوارنـا في تلك الغُرفـة بالبدروم، تنهدت بشـيءٍ من مرارة الإحسـاس بالذنب، وتتمنى عـودة تلـك الأيام، ولا أعلم هل هـو نوع من المجاملـة، لِما رأت على وجهـي مـن ضيـق، أم أن السـيدة حقًّا غيـر سـعيدة بحياتهـا الجديدة،

أخاف أن أكتشف أنَّ الحُلم الذي يراودني بأن أسكن شقة جديدة أجده فحمًا أيضًـا، فقررت العدول عن تحليل الواقع، وأُلملم أشـيائي داخل صُندوقي: وهي عُلبتا ورنيش، وفرشتان، وخِرق قماش قطنية قصصتها مـن ثوب والدي، وأخذَت والدتي ما بَقي منه كسـوةً للمخدَّة، وأفترش تلك الخرق؛ لكيلا يسقط التراب المتعلق بنعالِ الأحذية على السجاد، أعتصرها بين يدي بقوة وأضعها داخل الصندوق، لا أعلم سِر شُعوري بضيـقٍ شـديدٍ جراء هذه الزيارة لشـقة الأسـتاذ رأفت، تعتـذر أُم طارق بلُطفٍ، بأن زوجها جعلني أصعد إلى الشـقة، وكان من الممكن إرسال الأحذية إلى غُرفتي، فتبتسـم وتعْدني بأنها سـوف تفعلها المرة القادمة، مبلغ خمسـة جنيهات ليس بالقليل، وكانـت منذ العامين الماضيين هي حصيلـة عمل يـوم كامل، أصبحتُ متمرسًـا فزاد الدخل من سـبعة إلى عشـرة جنيهـات، اليوم كاد يصل إلى عشـرين جنيهًا بنقـود رأفت، التي وضعَتها زوجته بين يدي، تبتسم بأن زوجها ترك لي هذه النقود.

حملت صُندوقي، أقطع دَرج السُّلم في بطءٍ شديدٍ إلى أسفل، أتمنى أن أصعـد طابقًـا وحيـدًا؛ لأكـون أمام شـقة نرجس، شـعرت برائحتها الجميلـة على السُّـلم، فهـل أتنفس لمـرةٍ واحدةٍ الشـجاعة، أو الجنون مثل: أخي محروس، وأُقدم على رغبات النفس دون النظر للعواقب؟

أَأَصعد بضع درجات؛ لأطرق على الباب لأرى نرجس؟ أشتاق لها، وأرى طيفهـا، وأغمضت عينيَّ على تلك الرؤية، أتحسـس السُّـلم إلى أسـفل باستسـلام، كادت أن تزل قدماي، ففتحت عينيَّ أتصفح وجهي

البائـس أمام المـرآة بغُرفتنا، تذكرت قول ميرفت، وهـي تناديني بالعمّ، وجدتُ أُمي واضعةً يدها على خدها كعادتها، تجلس على السرير مثل: رأس الكُرنـب، متكـورة على ذاتها، يبدو أن الشـيء الذي لا يزال يعكر صفوها لم ينجلِ بعدُ، وطلب خلوتها بمحروس هو سر انشغالها.

أنظـر إلى تلك المـرآة التي تُعلَّق بجـوار باب غُرفتنا، مـرآة صغيرة؛ لكنهـا تقوم بدورها، ومنذُ أن تركت المدرسـة لمْ أعد أتطلع إلى صورة المرآة المنعكسـة لوجهي، الذي يزداد شحوبًا، كنت أنظر وأحدّق كثيرًا قبـل الخروج إلى المدرسـة، أو لقاء نرجس، أظـل أتطلع لهيئتي مزهوًّا بها، أضع الزيت اللامع على شعر رأسي، العطر الذي طلبته من والدي، عندما نجحت في أول عام لي في المرحلة الثانوية بالقاهرة، أُعيد ترتيب هندامي أكثر من مرة، أجد أُمي تبتسم خلفي، تهمس ضاحكة تمازحني:

– أنت ولد "معجباني"[1].

فكثرة السَّير على المسطحات الخضراء يفقدها اخضرارها، وكذلك يفقـد الفقر المُدقع الإنسـان إحساسـه بذائقـة تجمُّل وجهـه، وكلاهما موطـئ لنعـال السـابلة، واليـوم يكفينـي نضْح وجهـي بقليلٍ مـن الماء قبل الخروج للعمل، وبأناملي أُخلل فروة رأسـي ذات الشـعر الطويل، وأواصـل النظر للمرآة، وصوت ميرفت في أُذنـي، وهي تصفني بالعم، وأحدق أتساءل:

– وجه مَن هذا؟

---

1 _ معجباني: شديد الإعجاب بنفسه.

كبرت عشرات السنين، على الرغم من أنني شارفت على دخول عامي العشرين، لكن أظن أنني أصبحت في التاسعة والخمسين، والحقيقة أن أعمار الناس لا تُقاس بالأيام والسنوات، لكن بقدر تجاربهم في الحياة، أمسكت بكتاب "طوق الحمامة"، أجد صورة نرجس ترتسم عليه، صورةً باهتةً، أو أبصرتها كذلك، وضعف البصر الذي يشبه موج البحر الهائج، يزحف نحو اليابسة، كلّ يوم يقتطع جزءًا منها.

جلست على سريري في صمت، ولمْ أبالِ بصمت أُمي التي لم تسألني عن سبب صمتي، كلٌّ مِنَّا يحتفظ بدواخل نفسه، أم هناك ما هو أهم من صمتي يشغل خلدها؟ تذكرت طلبها بإخلاء الغُرفة عليها هي ومحروس، ولمْ أسألها عن السبب، (مدَّدتُ جسدي المجهد على سريري)، وعاد محروس (يتنَطع) بعد منتصف الليل، فاستدرت على جنبي الأيمن تجاه الجدار، ولا أريد أن أسمع هذيان محروس الذي يأتيني كل ليلة بقصة جديدة، ولم تحرك أمي ساكنًا يبدو أنها أرجأت الأمر للصباح، أو ذهبت في نومٍ عميقٍ مرغمة، فهمس في أذني: حارس هل أنت مستيقظ؟

لزمت الصمت، لكنه ضحك، وأكد لي أنه يدرك أني مستيقظ، فأخذ يحكي في صوت شبه الهمس عن مغامرته الأخيرة، التي كانت قبل ساعة مع تلك المرأة المومس، والتي استدرجها هو والسائق إلى المقعد الأخير من السيارة الكبيرة، وذهبا بها إلى الطريق الخالي، خلف مطبعة الأميرية، وتبادلا هو وسائقه الأدوار، وأنهى كلامه بأنها أخذت منهما عشرين جنيهًا، وقطعة حشيش، وحكاياته التي أظن أن معظمها من نسج خياله، جعلتني أفكر مرة أخرى في العودة إلى حافلة النقل.

# (7)

لـم يكـن صمت أمـي عني إلا لحـادثٍ كبيـر، على الرغم مـن كثرة ظنونـي بمـا يحمله صدرها من أشـياء كلهـا مريبة لي، لكن فـي النهاية لم أصـل لليقين بدواخل نفسـها، وجمعني الليل بمحـروس، وباح لي بالحكايـة كلها، وما يحفظـه كله في ذاكرته يجتره علـيَّ مرة أخرى؛ بل مـرات دون أن أطلـب منه، حقيقة الأمر منذ حادث أسـطوانة الغاز، بدأ يبتز أُم سامية، ويأخذ نقودًا منها، أو يفضح أمرها بين الناس، لكن ما قاله لي محروس غير ذلك، ولم تجد المرأة ملاذًا من بعد أن ضاق صدرها، إلا الشـكوى لأمي التي حزِنت حُزنًا عميقًـا، أكثر من حزنها على موت والدي، وواجهت محروس صباح اليوم بفعلته الشنعاء.

بعـد أن خرجـت للعمـل، وخلـت لهمـا الغرفـة أوصـدت البـاب، واقتربـت منـه، بصقَـت في وجهـه مرتيـن، أُولاهما: عندما بـدأت معه الحوار، وثانيهما: عندما انتهى الحوار إلى طريق مسدود، هو يحاول أن يتملص من قبضتها إلى خارج الغرفة، كيف يغتصب امرأة في عمر أُمه؟ كما أبلغتها أُم سـامية ما تأكد لأمي أنَّ مـا حدث جريمة اغتصاب كاملة الأركان، ولـمْ تفكر لبرهة بأن الأمر متعـة متبادلة كما أبلغني محروس، تلطـم علـى خديها ليـلًا، تشـكي لروح والـدي، بـأن ابنه البِكـر ضاع، أوشكت أن تُمحى ملامح والدي من ذاكرتي، ولم نحتفظ له بصورة إلا بطاقـة الرقم القومي، التي احتفظت بهـا أمي، فإنها تحمل صورة باهتة،

وصـورة أخرى من وثيقة الزواج، وعلـى الرغم من قلة حِيلة أُمِّي؛ فإنها تقـف لمحروس في حزم، هددته بالوسـائل كلها؛ ليرتد عمَّا سـلكه مع هـذه المرأة من ابتزازها، وهو يتمسـك بقوله بأن مـا تتفوه به هذه المرأة ما هو إلا بهتان وزور.

اختتـم حديثه بالكذب كعادتـه، بأن تلك المرأة لم تفهم مقصده ليلة ما طلب مني نقودًا، ولم أُلبِّ طلبه، كان في أشد الحاجة، فاقترض منها، وقـد وعدهـا بأنه سـوف يرد مـا اقترض عاجـلًا أم آجلًا، لكنهـا افترت عليـه، ولم تفهم مقصـده بأنه اقتراض، وليس ابتـزازًا، ردَّت أمي النقود لأُم سـامية التي لـم تقبلها، وكان رجاؤهـا الوحيد بأن يبتعـد عنها، بعد هذا الحادث ابتعدت أم سامية عن أمي، ولم تَعُد الصديقةَ المقربة منها، بل واصلت عزلتها، ولم تجالسـها عند أدراج مدخل الغُرف، وكما هي العادة منذ سـنوات، اليـوم كلما عُدت من العمـل، وجدت أمي تجلس وحيدة، تضع يدها على خدها شـاخصة البصر، تردُّ على تحية السـابلة، وعندما أشاهدها شاردة، تزداد حيرتي، فبماذا تفكرين كلَّ هذا الوقت؟

حمـدت اللـه أن سـامية لـمْ تعلم عـن الأمر شـيئًا، فظلَّـت تداعبني وأداعبها، ونواصل مزاحنا معًا، وكأننا غرباء عما حدث داخل الغُرفتين، وحالـة القطيعـة التـي بـدأت، فمنـذ الصغـر لا تُحـب أن تتحـدث إلى محروس، فظلت صديقة لي يجمعنا دومًا حوار ممتع لكلٍّ مِنَّا، وفي يومٍ ما افتعل محروس معها مشـكلة، كادت تصل إلى حد التشابك بالأيدي بينهما، وأسـمَعَها من الـكلام القبيح كثيرًا، وكال لها الشـتائم، واتهمها

في سـلوكها بأنها سيئة السُـمعة، كما يتردد بين سُـكان المنطقة (الـ.... بتاعت الحقن)، قالها وفـرَّ هاربًا، ألقت أُمي بالحذاء خلفه، يتوارى من الحـذاء الآخر، والذي أطلقته أمي بعد أن طاشـت الفردة الأولى، بكت ليلتها بكاءً شديدًا، ومنذ هذه الواقعة وسامية لا تدخل غُرفتنا في وجود محـروس، تحـاول أن تتجنبـه، كما ظللـتُ أتجنبه أنا أيضًـا بعد حادث الابتزاز مع أُم سـامية، وقد حاول في أكثر مـن مرة أن يطلب وُدِّي، ولمْ يجـد إلا الصدّ وعـدم الاهتمام، ومـرت ليالٍ كثيرة متشـابهة حتى تلك الليلة، التي لم يَعُد فيها محروس للبيت، كما فعلها قبل ذلك كثيرًا، وكنَّا لا نعلـم أين يقضي ليلته، فى الصبـاح دبَّ القلق في قلب أمي، وأحمل صندوقي؛ للذهاب للعمل فتسألني عن أخي، فهززتُ كتفي بدون أدنى اهتمام، أبلغتُها بأنه إن لم يعد حتى الليل فسأذهب إلى موقف السيارات أبحـث عنه، فعـدتُ من العمل ولم يَعُـدْ أخي، والقلق لا يـزال متربصا بقلب أُمِّي التي أعادت طلبها بالبحث عن أخي، جلست على سريري في صمت، أمسك بيدي سيجارة أعطاها لي زبونٌ اليوم، فوضعتُها في جيب جلبابي، ولم أُشـعلها، تذكرت كلمات عمّ عرفة الغريب عندما قال لي: في شبابك يجب أن تكون مثل قطعة المغناطيس بالنسبة لِقِطَع المعادن الصغيـرة، خذ كل شـيء، ما لا يعجبك، فما أكثـر أماكن القمامة عندنا!

أفكر في كلمات أُم أحمد، هي اليوم غير سعيدة عندما تكسرت منها عشر بيضات، وقد افتعل زوجها معها أمسِ مشكلة كبرى؛ لمعرفته بأمر دفتر التوفير الذي تدخر به المرأة، فطلب منها النقود، فرفضت؛ فانقلب حال الزوج الذي تركها تتكفل بشؤون البيت، يجلس يلعب الدُومينو"،

و"الكوتشينة" على المقهى، وتذهب هي لطلب الرزق، وتجمع بيض الدجاج من فلَّاحات قريتها، وتحمله في السادسة صباحًا داخل قُفَّة، وتحشر جسدها بقطار المناشي، تزاحم الموظفين والطلبة، فسألتُها كيف تعوَّد على عدم العمل؟ (فتمصُّ شفتيها؛ ساخرة منه):

– يعمل سمسار أراضي زراعية وعقارات، وهو يدَّعي ذلك لكن هذه الكلمات ما هي إلا ستار لكلمة عاطل.

لم يعرف النوم طريقي لقلق أمي، التي تتقلب في مضجعها؛ خوفًا على محروس، تتقلب كذبيحةٍ مُعلَّقةٍ للشواء، وطلبت مني مرة أخرى أن أبحث عن أخي، ومرَّتْ ليلتان، ولمْ يَعُدْ للبيت، وهذه السابقة الأولى، وظلت تلح عليَّ ولا تريد الانتظار إلى الصباح، قلبها يُحدثها بأنه يواجه خطرًا شديدًا، ومنذ متى وطريق أخي يخلو من العراقيل، فأغمضتُ عيني بفتور، ورددتُ عليها، ببرود مطلقٍ خالٍ من أيَّة مشاعر:

– أشعر بالتعب؛ فلْنَنتظر للصباح.

استسلمت أمي لرغبتي ولإحساسي المتبلَّد تجاه أخي، ولمْ تجد بديلًا إلا الصمت، قصدتُ الحمَّام، أفحص باب غُرفة سامية الموصد، تذكرت سمير مبروك، همست في سَريرتي، أكثر شيء يريح نفس الإنسان هو فعل الخير، فمَن أحق به غير سمير؟ سألته إن كان يريد شيئًا أقضيه له، في حقيقة الأمر أنا مَن أحتاج إليه، فهو ليس في احتياج.

نظر في عيني يتفحصها، بعد أن مدَّ لي يده بكوب من الشاي، فوضعت الكوب بجواري؛ حتى أسْتَرح ويجفُّ عرقي، وكنتُ قد حملت من غُرفته كل شيء ممكن أن يحتاج نظافةً، أو غسيلًا، الإناء البلاستيك أزرق اللون يُوضع عند طرف سريره، يغسل به أوانيه وأكوابه، وأفرغتُ منه المياه القذرة وعُدت به نظيفًا، وملأت له مياهًا نظيفة، فسألتُه عن زجاجات البول، فرفض، وأقسمتُ عليه، فحملتُ أواني الطعام والشراب لغسلها، تأثرت جدًّا عندما سقط من يدي كوب من الزجاج أمام الصنبور، فتكسَّر، اعتذرت عما حدث مني دون قصد، أنهيتُ عملي بقدر معرفتي بالأعمال المنزلية التي تعلمتُها من والدتي، فأخذتُ من يده الشاي وجلسنا نتسامر، أشعلتُ سيجارةً منحني إياها مع أول رشفة من كوب الشاي، حدقت النظر في وجهه المائل للصغر، جسده الطفولي مثل صوته، وهمستُ: أريد معرفة سر ابتسامتك الدائمة، وأنت على هذه الحالة؟

ابتلعت ما بقي من كلمات، أخشى أن يكون كلامي جارحًا له، فأرتشف رشفة أخرى من كوب الشاي الساخن، أهرب من نظراته المتفحصة لوجهي، تململ على فراشه، وهرشَ ظهره في جدار خلفه إثر طفح على جلده من الحرارة الشديدة هذا الصيف، يحمل بيمينه كتاب الله من جواره على السرير إلى منضدة أمامه، عليها كثير من الكُتب، وأجلس بجواره على مقعد بلاستيك أبيض، ارتسمَت على وجهه الجَدية في صوت آمر:

- أحضر لي قطعة من بقايا كوب الزجاج المُحطم.

وقد جمعتها من حول الصنبور؛ خشية أن تصيب أحدًا، هززتُ رأسي، ولمْ أفهم شيئًا:

- أخشى أن تصيب يديك.

فأمسك بها، ثم نظر في عينيَّ يعاتبني بقوة:

- لو كنتَ شديد الحِرص عليها، لكانَ من الممكن ألا تسقط من يديك؟

تلعثمتُ في الكلام، أشعر بخجلٍ مُفرط، قبل أن أبوح بمبرراتي أن ما حدث رُغم أنفي، فقاطعني بصوتٍ حاد: يا حارس، أريد إصلاحها.

فهَمْهمتُ بكلمات غير واضحة فوق شفتيَّ المختلجتين:

- سوف أبتاع غدًا لك كوبًا آخر.

هززتُ كَتفي، وأشعر بقلة حيلة، أهمس في سريرتي: "هل مَن يُقدم على فعل الخير يستحق هذه الطريقة من التعامل غير اللائق؟!"

لمْ أهرب إلى كوب الشاي المُمتلئ هذه المرة، وأداري خجلي المُفرط ببعض رشفات؛ بل وضعتُ الكوب بجواري؛ لأستعد للانصراف.

تبسم بصوته الطفولي عندما رأى احْتقان وجهي:

- هكذا أتعامل أنا مع القدر، وحالتي المَرَضية أصبحت مثل الإناء المَكسور.

فقهْقهنَا معًا، أشعر بشعور جميل؛ فالليلة اكتسبتُ صديقًا حقيقيًّا، وحكينا عن نرجس، فهو يعرف قصة حُبنا، وما آل إليه حال أُسرتنا بعد موت والدي، وحكى لي عن السرِّيحة، وكيف أنهم يعيشون هنا على بقايا الأشياء، ويشاركون الفقراء في الصدقات، وهم يملكون بيوتًا، وبعضهم ميسور الحال، ويسافرون إلى بلادهم بشوارب يقف عليها الصقر، وعُنوانها الرجولة، والكرامة، والحياء، لكن عندما يدخلون من الأبواب الخلفية، يتركون أشياء كثيرة على أبواب هذه المدينة! إنه يكره طريقة حياتهم للمغالاة في الفقر، بعضهم يمارس السرقة: (أيديهم ماتعلّمش في الميه)، هذه كلمات سمعتها كثيرًا عنهم، قالها سمير، تبسم وهو يحكي عن زوجة الريس عبد الحكيم، التي دائمًا يسمع حديثهما، وعندما يحاول الاختلاء بها في غفلة من أولاده، أثناء القيلولة يكلفهم الرجل بمَهام تبعدهم عن الغرفة، وعندما يجدها لم تستحم؛ لانشغال الحمَّام، وتفوح منها رائحة غير طيبة؛ يضرب الباب بكلتا يديه، وينصرف إلى المقهى في حالة تذمر: (وِليَّة...)، ولم ينتظر سماع مبررات المرأة، التي ضاق بها المكان، وكثرة محاولاتها للذهاب إلى الحمام المشغول، أو لعدم قدرتها على الاختلاء بغرفتها، لتستحم داخل الطِّشت النُّحاسيّ.

انتقل إلى سامية التي مدح فيها، وذمَّ في أُمِّها، وضحكنا معًا عن عمّ عرفة، وكيف لهذا الرجل أن يقف أمام الناس لا يشاركهم الحديث، ولمْ يَعُد يشعر بحرجٍ من وضع يديه دائمًا على أعضائه التناسلية للهَرش، لكن هذا الرجل مُحطم من الداخل، مثل:

- كـوب الزجـاج الـذي حطَّمتَـه لـي الليلـة، وهنـا ابتسـم، فبادلتُه الابتسام.

شـعوري القديم أصبـح يقينًا بأن الجـدران التي تفصـل الغُرف هي جدران شفافة، ولا تحجب الرؤية، أو السمع، وجعلني أقصُّ عليه قصة الرجل، وما قاله هو عن نفسـه، لكنني احتفظت بسِـر الفتق كما وعدتُ الرجل، أشعر أن سمير شديد الملاحظة، أو آلة لتسجيل أحداث سكان الغُـرف، وأحوالهـم، وحكاياتهـم التي هـي عالم سـمير الخاص الذي لـم يجد عنـه بديلًا، وحكيتُ له عـن رغبتي في أن أحملـه إلى الحمَّام؛ ليغتسـل، فضحك من أُمنيتي، وهزَّ رأسه بسعادة، وانتهى بنا القول وهو يسألني بجدية تامة:

- لِمَ لا تتزوج من سامية يا حارس؟

وحدقتُ النظر به؛ مُتعجبًا من كلماته، ثُمَّ همستُ:

- أَتَزَوَّج بسامية؟!

# (8)

يومان آخران من البحث عن محروس جعلاني أترك صندوقي داخل الحجرة، ولا أخرج للعمل، وضاق صدري من عملية البحث، أعود للغرفة؛ لأصطدم برجاء أمي، ودموعها، أخرج مرة أخرى للبحث، وشاركتْني سامية مهمة البحث الشاقة، توصلنا في نهاية المطاف أن محروس بين جدران قسم الشرطة، وعرفنا هذا الأمر عن طريق مُحامٍ بحَث معنا بالأَجر، وكانت هذه فكرة سامية، والمحامي يجيد التعامل مع رجال الشرطة، وكان صديقًا لها، وأجره زهيد على حد قولها، اكتشفتُ أنَّ لسامية عالمًا آخر تعيش فيه غير عالم الغُرف، وأنها لا تُخبر أحدًا بأن مسكنها حجرة في باطن الأرض؛ بل تُصرح دومًا بأنها تمتلك شقة داخل المساكن، كما سمعتُها تتحدث إلى المحامي عن شقتها التي تريد تجديد بعض أثاثها، ولا أعرف سببًا لِما تفعله سامية إلا محاولة يائسة.

أجهل سبب اعتقال أخي، وهل يحتاج محروس سببًا لاعتقاله؟ فهو يتعاطى، وسمعتُ في الآونة الأخيرة أنه بدأ (يُبلطِج على بعض الناس الضعفاء)، ويتقاضى بعض النقود قهرًا، وأقف أمام شقة الأستاذ: رأفت، الذي اشترى سيارة خاصة جديدة حمراء اللون، فهي وسيارة ياسر المنزلاوي يحملان الماركة نفسها، وجدتُه عصر أمسِ يُعلِّم ابنه طارق القيادة أثناء عودتنا أنا وسامية من عملية البحث، ترقُبنا العيون بين غامز ولامز، السرِّيحة على الرغم من بُغضهم غير المُعلن لرأفت؛

فإنني سمعتهم مرة يغتابونه، ويصفونه بالمُتكبر؛ لكن أمام عينه رأيتُ الاحترام المُبالَغ فيه، يقفون بجوار السيارة، ويجهرون بالسعادة، والمُباركة له، أطلقوا عليه (البيك)؛ لكثرة خدماته لهم في الآونة الأخيرة، الغُرفتان القديمتان اللتان كان يسكنهما، سوف يفتتحهما هو والسرِّيحة مكانًا لتعبئة بعض المنتجات، والتي لا يزال يعيد تعبئتها، وعندما قُبض على ابن شقيق الريس عبد الحكيم ذهب يستجدي المساعدة من رأفت، يعرف رجالًا ذوى أيادٍ طائلة في الحزب الحاكم، هذا ما ردَّده عنه الناس، سلوكه مع الناس جميعًا، حلاوة لسانه دومًا، يضع لقبًا لكلِّ شخص، عندما يناديني باسمي مصحوبًا بالسيد، وهذا بالبيك، وآخر مُعلم، وهؤلاء أهل جود وخير، وصفات لا تمُت بصلة لصاحب الشخصية، أو لأهل الغُرف، لكن في النهاية يجبرك بأن تردُّ له تحيته بتحية أفضل منها. والأستاذ رأفت حلمي يُحب خدمة الناس جميعًا، وهذا ليس عن كرمٍ منه، بل ليتناسى الناس أنه من سُكان البدرومات سابقًا، بعدما صعد إلى الطابق الثاني بالبناية نفسها، وكان هذا رأي سمير فيه الذي ذكر زوجة الرجل بكُلِّ خير، ولم أجد سبيلًا بعد أن ضاقت بي السُّبل كلها، إلا طَرقاتٍ بيدٍ مُرتعشة، ورأس مُطَأطِئ على باب شقته؛ أطلب منه المساعدة.

تعهدت أمي على نفسها، بأن ابنها لن يعاود فعل هذا الأمر، تتوسل بدموعها لرأفت أن يمدَّ يَد المساعدة لنا، خرج محروس الذي ظل مُلقًى على ظهره لا يبرح السرير، تركتُه له؛ لينام وحيدًا، وافترشت (بَطَّانِيَّة قديمة على الأرض) بجواره؛ خشية أن ألمس دون قصد جسده

المُعـذب، خرج من السـجن بعد التعهـد الذي قطعه على نفسـه، بعدم ممارسـة البلطجـة مـرة أخـرى، واعتـذر لرجل الشـرطة الـذي اعتدى عليه، وقد ضرب محروس ضابط شـرطة؛ فدخل إلى القسم واقفًا على قدميـن، خرج منه بقايا إنسـان، وكشـف لـي عن ظهره الـذي وضحت بـه بُقـع باللـون الأزرق، وتكتلاتٍ من الـدم تحت الجلد، وآثار بشـعة للتعذيـب، وفـي منتصف الليـل تبول على نفسـه، فلمْ أسـتطع أن أمنع دموعي التي تسـاقطت رُغم أنفي، عندما ساعدتُه على الذهاب للحمَّام للاسـتحمام، ولقضـاء حاجته، التي قضاها على نفسـه مـرات عِدة بعد خروجه من السجن.

مرت ليالٍ بطيئة جدًا، كأنها طفل يحبو، وأمي تقف على قدم وساق بجوار محروس لخدمته، تسـعد عندما يطلب منها أن تقضي له أمرًا ما، وكانت طلباته قليلة مقارنةً بما سبق، وأشياء تبدو ضرورية، أو عجز عن تلبيتها لنفسـه، تبدل حاله، ولم يَعـد زيَّاطًا، أنظر إلى محروس الصامت السـاكن كأنه جذع متيبس يتطلع إلى سقف الحجرة، بل إلى فضاء بعيد عن غُرفتنا، جعل من الحزن جدارًا، ووضع نفسـه خلفه، أشـعر بالذنب الأكبر؛ لأنني لم أخرج بالليل للبحث عنه، وانتظرت للصباح، وتساءلت هـل كان مـن الممكن إنقـاذ محروس قبـل أن تطوله يد الشـرطة؟ التي قالـت عنه: إنَّ محـروس توحش، ويجب خلع أنيابـه، أواصل الصمت غيـر المبـرر المُقلق لراحتـي، وعندما أسـمع تأوُّهات أخـي، تطاردني أفكار خبيثة كَظِلِّي؛ لأنني متكاسـلٌ، وصرتُ شـريك تلك اليد الباطشة التي فتكت بأخي، أبحث عن مخرج من خبث نفسي المتكاسلة.

ولمْ يكُن اليوم أكثر تفاؤلًا من أمس، مررت بمقهى المحطة، أسمع طرقات أحجار "الدومينو"، نظرت إلى الوجوه الجالسة، انصرفت في صمت دون أملٍ في نِعالِ زبائن المقهى، إلى السنترال، انتهى بي المطاف بجوار مسجد سيدي إسماعيل، وأمسك بكوب من الشاي الساخن، الذي أخذتُه من المرأة التي تسعد برؤيتي دومًا، عندما أجالسها لا تتوقف عن بثِّ شكواها لي، ارتشفتُ منه عدة مرات بعد أن انتهيتُ من آخر زبون كان أمامي، تتعجلني المرأة؛ لتأخذ كوبها، وترحل، اليوم هي في عجلة من أمرها، تجمع حوائجها من الزبائن، أحمل عليها حاجتها وتنصرف، يقف أمامي بجسده الضخم، يضع حذاءه على صندوقي ياسر المنزلاوي، فأشعر بضيق كبير، وثقل يجثُو على صدري منذ أمسِ، وحالة محروس أخي التي لم تبرح خلدي، وزاد هذا الثقل الآنَ وقوف ياسر أمامي، بعد طول صمت اتخذت القرار، ولمَّعتُ له حذاءه بعصبية مطلقة، وقبضتُ على فرشتي، وكأنني قابضٌ على رقبته.

عندما أوشكتُ أن أنتهي من عملي، وجدتُ على وجهه ابتسامة صفراء، شاح في الاتجاه الآخر من الشارع، وسيارته الخاصة تقف هناك أمام السنترال، وكأنه يُبلِّغ رسالة إلى شخصٍ ما يجلس بها، لأن الشمس مُصفرَّة وقت الأصيل؛ فلمْ تُبصر عيناي مَن يجلس بها؛ لضعف بصري، رفع قدمه عن صُندوقي، ومدَّ يده بورقة نقدية فئة جنيهٍ، ملامح وجهي جامدة تُشبه التمثال، ونظر لي بعينين متجهمتين ساخرتين، وألقى النقود بغرور على الأرض بعيدًا عن يدي، وانصرف مبتسمًا مُختالًا، وسهوج رياح أمشيرية تضرب رأسي، صار بضع خطوات، ولا أعلم

مـا الـذي جعلني أُهرول خلفه، أَدفعه بمرارة السـنين بمـا أملك من قوة من الخلف، يسـقط على وجهه كجدارٍ متهدمٍ يثير الغبار حوله، بصوت سجين خلف جدرانٍ من السكوت أصرخ:

– أنا لستُ بكلبٍ، إنك تدفع لي ثمن عملي.

تجمَّـع الناس حولنا، يحـاول كالثُور الهائج الفتك بـي، منحني الله شـجاعةً كبيـرة، أنادي في الناس: كيف تعامل معـي هذا المُتكبر، ودفع لـي ثمـن عملـي كأنـه صدقـة، أو لُقمـة يُلقمها لجـوف كلـب جائع؟! ونجحت في حشـد تعاطُف الناس، فأخذوا يَحولون بيننا، أشـتمُّ رائحة نرجـس التـي تركت السـيارة، وأتت تهرول تدفع ياسـر تجاه السـيارة، وترجـوه إنَّ مـا يفعلـه لا يليـق بنـا كمُحترميـن، وصوت ياسـر كالرعد يتوعدني، ويهددني بأنه سوف يطردني من المنطقة، بل من المدينة؛ لأن منـذ قدومي مـن القرية، وأنا في نظره لاجئ مُتطفـل، دخيل كالنمل من حاويات الحبوب. أكثر شيء آلمني دموع نرجس، وهي ترجو ياسر بأن يكفّ عن الفضائح التي لا جدوى منها، ويتركني لحال سـبيلي، وتسأله لِـمَ يفعـل بي هـذا الأمر؟ لمْ تسـمع آذان النـاس غير وابلٍ من السُّـباب يوجهـه لي، تدخَّل بعضُ من الرجال الكبار، انتهى الأمر، ورحل ياسـر غاضبًا، سمعتُ صوت صفير عجلات سيارته على الطريق المرصوف؛ يقصد شارع المدارس، يقود بسرعة مفرطة؛ نتيجة الشِّجار، اكتفيتُ بما حـدث مع ياسـر، فلمْ أذهب للسـوق، بل عُدت إلى غرفتنـا، وأول مرة أشعر بشعورٍ جديدٍ يتسلل إلى طوية النفس المظلمة بأنني رابح.

أسـمع صوت زغاريد في شقة الأستاذ: رأفت، فلمْ أهتم، وبعد عدة دقائق من جلوسي بين أُمِّي ومحروس الصامتين، أشعر ببقايا أخي ترقد بجوارنـا علـى السـرير، تدخل علينا أُم طـارق تحمل لنا طبقًـا كبيرًا من الأرز المُبلل بمرقة، عليه بعض قِطَع من اللحوم، تدخل مبتسـمة تحمل بجـوار طبقهـا خَبرًا سـارًّا، أن طـارق ابنهـا -الحمد للـه- الْتحق بكلية الشرطة، فهززتُ رأسي أتذكر الموعد المُهم للأستاذ: رأفت ليلة تلميع حذائـه، أظن قد اسـتجاب الله للدعاء، وآتى الموعـد ثماره، ولم أنتظر منه هدية كما وعد.

وهنَّأتْها أمي بفرحـةٍ كبيرة، وانصرفت المرأة، وهي تُهنئ أمي أيضًا؛ على خروج محروس لنا سـالمًا من السجن، وأنا ما زلتُ تحت سلطان صوت نرجس، وسخافة ياسر.

# (9)

الأيـام بين الفقراء تُكتب أحوالها على ورق الكربون، الذي ينقل لنا صـورة طبق الأصل، لكن مداده يزداد سـوادًا، وأصبحت حالتي كذلك مـع تعاقب الليل والنهار على مدارٍ ثابـتٍ لعالمٍ متغير، ولا يزال حادث محروس يعد متغيرًا كبيرًا لحياته وثبوتًا لحياتي، عاد مرة أخرى للعمل، ولـمْ أعرف له عملًا غير مصاحبة السـائقين، وهل حُلـم القيادة لا يزال يراوده؟ أمْ تخلَّى عنه كما تخلَّت نرجس عن حُلمها بأن تكون أديبة، أو شاعرة، كما تخلَّيتُ أنا عن أحلامي السريالية.

"أحلامي مثل ألعاب الأطفال، صغيرة.. كثيرة.. سهلة الكَسر".

منـذ بكائـه فـي ليلة التبول على نفسـه قد قـصَّ عليَّ مـا كان من أمر رجال الشـرطة معه، وظل يتقهقر بصوتٍ ممتزج بأنينٍ عن الكرسي ذي الخازوق، وجلوسه عليه؛ ليهتك لَحمه وأنسجته، ومُنغرسًا في مؤخرته، يطلبون منه بأن يسـمِّي نفسه باسم امرأة، وصاعق الكهرباء الذي يُوضع علـى أطراف من جسـده، فيجعله يقع مغشـيًّا عليه، ولـمْ أجد محروس أخي منكسر النفس، مثلما أراه في هذه الأيام التي تمر ببطءٍ شديد.

عُـدت من العمل هذه الليلة، وقد نسـيتُ موعد الدكتور الذي مرت عليـه أيـام، وحتـى تلك القطـرات لم أهتم بهـا، فإن وضعـتُ في عينيَّ السـائل يومًا نسيت اليوم الثاني، وأرى وجه أمي يزداد شحوبًا، وبرزت

عظـام جسـدها مـن تحـت جلدها، الـذي أصبح بلـون ثوبها الأسـود، لكـن غضضتُ الطـرف عنها كما غضضتُ الطرف عـن تلك الزغاريد، وصـوت الأفراح الذي انطلق من الطابق الثالـث، وليلة أمسِ عُقد قِران ياسـر المنـزلاوي علـى نرجس إبراهيـم، ورجـل التنورة الـذي بهرني عندما كنت صغيرًا، بتلك الحركات الدورانية السـريعة هذه هي حالي، تشـابكت المشـاهد كلها واهتزت، واختلط الأمر علـيَّ كما خلا الممر مـن تلك الأصـوات المزعجة، ذهب السـرِّيحة فـي رحلةٍ للبلـدة، ابن الريس عبد الحكيم البكر الذي لا يأتي إلى هنا إلا قليلًا، قد كان عُرسـه هذا الأسبوع، فذهبوا جميعًا؛ يباركون الزواج.

ضاقت عليَّ الغُرفة في تلك الليلة، كما ضاق صدري بكل شيء مِن حولـي، وأُمي نائمة، والغُـرف كلها موصدة، خلـف جدرانها حكايات كثيـرة أخرسـها الفقر المُدقـع، إلا بصيصًا من الضـوء الخافت ينفذ من تحـت أبـواب الغرف المُطلة على الممر، ولمْ تكُـن لي رغبة في الطرق علـى سـمير مبروك، ولمْ أعد أشـعر بسـعادة لفعل الخير، سـرتُ بضع خطـوات وسـط الممـر، واضعًا يـدي خلف ظهـري، وأنظـر إلى تلك الأرضيـة الخرسـانية التي تآكل سـطحها، وبـاب غُرفة أم سـامية يُفتح، فتبدد جزء من ظلام الممر بسـبب احتراق المصباح المعلق في الوسـط أمـسِ، ولـم يُغيره أحـد، تقترب سـامية بِطَلَّتها البهية مِنـي، فتذكرتُ أن الليلة هو يوم إجازة من العمل كما قالت لي، لكني رأيتُها تخرج للعمل فـي هـذا اليوم بعد ذلك كثيرًا، فلمْ أُعقب، ولمْ أهتم، فتسـألني عن سـر وحدتـي ووقفتي في الظلام، فزفرتُ نفَسًـا عميقًـا، والجواب المعهود

بأن النوم هجرني، وأكملتُ في سريرتي: كما هجرتني نرجس.

ضحكتْ، اقتربَتْ مني، تربتُ بيدها على كتفي، تسألني عمَّا يشغل خاطري: فهل هو حُب جديد؟ كلمة حب كفيلة بأن تختطف جسدي لعالم بعيد، أخشى أن تتحدث سامية عن نرجس، التي كان زفافها ليلة أمسِ، مَشَت داخل الممر بضع خطوات؛ لتجلس على دَرج السُّلم المؤدي للحمَّام والصنبور، جلستُ بجوارها أختلس النظرات لجسدها، سألتُها: أَلمْ يتقدم لطلب يدها أحد؟ أتذكر حديثها مع المحامي، بأنها لا تسكن الغُرف؛ بل صاحبة شقة.

زفرت سامية نَفَسًا شعرتُ بلهيبه:

كانوا ثلاثة متعاقبين في أثناء خمس سنوات، وانتهت بهم علاقتي عند أول زيارة إلى أمي. وضحكتُ بعد أن قالت لي هذه الكلمات ساخرة من حالها. وأتطلع بوجهي شاخص البصر إلى تلك الأبواب الموصدة:

– أظن أن لعنة هذه الغُرف تُشبه الخلايا المسرطنة للجسد، وتهدم ما فيه كله، وتصيبه بالوباء.

فتمازحني: هذه الغُرف تُعلِّم الناس الفلسفة.

دائمًا أرى سامية، منذ معرفتي بها مُهندمة الثياب، ولديها ذوق رفيع في اختيار ملابسها، وأدوات التجميل التي تبالغ في وضعها، على الرغم من تواضع جمالها، وحكت وهي تضحك عن قميص نومها

الذي سُـرق منها، عندما نشـرتْهُ والدتها على حبل الغسيل، وهي تعرف أن إحدى نسـاء السـرِّيحة هي مَن أخذته، وصمتَت؛ لأنها ترى الأمر لا يستحق لافتعال مشـكلة، وتمازحني مبتسمة: المرأة عندها مَن يستحق أن تتزين له.

دون أن أدري وضعـتُ يـدي فـوق كـف يدهـا، التـي تضعهـا على فخذهـا، والتـي تهتـز بين حينٍ وآخـر باهتزاز جسـدها البـضّ مع تلك البيجامـة القطنيـة الجميلة نصف الكُـمْ، تضع على كتفيهـا فوطة كبيرة تغطـي كتفهـا، تبادلنا النظرات، وأنـا قابضٌ على كفها برفق، وسـحبَت يدها من تحت يدي الُمرتعشة، لأجد كف يدي على فخذها مثل وسادة قطنية، تذكـرتُ مغامرات محروس الجنسـية، والحالة التي كُنت عليها داخل حافلة النقل العام، تُشـبه اضطرابي الآنَ، وأنظر إلى عينيها؛ لأجد بريقًـا لدمعـة متحجرة علـى الرغم من ملامـح وجهها الجامـدة، لكني واصلـت الزحف نحو جسـدها، وتملكتني حالة من الشـبق؛ فجعلتني أقتـرب بشـفتيَّ للثم شـفتيها بقُبلة، وسـقطَت الفوطة من علـى كتفيها؛ لتكشف عن ساعدين أبيضين، ولا تزال تحملق في مكانٍ بعيدٍ عن هنا، ولـمْ تشـعر بأيَّة نشـوة، فلماذا تركتني أُقبلها على شـفتيها اللتين أواصل التهامهمـا ككلبٍ جائـع، ولـم أكتـفِ بقُبلة؛ بل قبـلات متواصلة، حتى سـرَت رعشـة في أوصال جسـدي، انتهيتُ من قُبلتي، وقد كسا وجهها الخجـل المُفرط، وتغمض عينيها، وتضم فخذيها بقوة، لكن ما جعلني أتوجـس خيفـة حالتها الشـمعية، فقامت بفزعٍ شـديدٍ تزيـح عنها يدي، وتقف في وسـط الممر بعـد أن وضعت الفوطة علـى كتفيها، فَلملمتُ

أشـياءها التي كادت تتركها تحت لحظة ضعف، وأنا ما زلتُ جالسًا في مكانـي على إحـدى الدرجات، أنتظـر عاصفة رد الفعل، تمسـح دموع عينيها المتساقطة ببطءٍ شديد، همست لي إن كنت أريدها؛ فعليَّ التقدم للزواج، وانصرفتْ دون أن تنتظر مني جوابًا.

# (10)

أُم أحمد بائعة البيض اليوم مبتسمة، يبدو أن بعض من النسوة سعادتها تنبع من بين فَخِذَيها، عندما سألتها عن حالها وزوجها، فأجابت بسعادة مفرطة: على ما يرام.

قد قصت عليَّ أنها ستتغيب لمدة أيام، لعمل بعض التعديلات داخل منزلها، فلقد منحت زوجها صباح اليوم النقود التي ادخرتها بدفتر التوفير؛ لكي يشتري مواد البناء، وبعد أن اتفقت مع المقاول المسؤول عن عملية ترميم البيت، وما أكد لي شعوري تجاه المرأة بمصدر السعادة، هو شراء الجمبري عند انصرافها لزوجها، صوت السمَّاك ومزاحه معها يصاحبها حتى وضعت حاجتها بالقُفَّة، تشير بيدها مبتسمة بأن يكفّ السمَّاك عن مزاحه خشية الافتضاح، تنصرف تجاه محطة إمبابة؛ لتنتظر قطار المناشي.

قد تعوَّدتُ أن أعود للبيت متأخرًا، مرت عليَّ ساعة الغروب بعد وداع أم أحمد، انتقلت إلى مسجد سيدي إسماعيل، وفي أثناء جلوسي مرَّ عليَّ شيخان مُسنان، على الرغم من تقدمهما في السن؛ فإنه يبدو عليهما الصحة والوقار، ومعهما شخص أعرفه جيدًا، كان يعمل سائقًا في موقف السيارات، لكن بعد تلك الإصابة في قدمه توقف عن قيادة السيارات، وصار أعرج، فانتقل إلى جمع النقود من السائقين، ذات

مـرة رأيتُه بالموقف يصيح بصوت جهور، ويُقسـم باللـه إن هذه النقود يقاسـمه فيها رجال الشـرطة، وإنها جميعًا لا تخصُّه، عندما تمرد بعض السـائقين عـن دفـع النقود، حطَّـم زجاج إحدى السـيارات التـي امتنع صاحبهـا، فاجتمعـوا جميعًـا علـى المقهـى، وصـاح بهم الرجـل: أَلَمْ يقصدنـي أيٌّ منكـم في خدمـات تخصُّ رجال الشـرطة، أو اسـتخراج رخصة القيادة؟ هل تأخرت على أي شـخص؟ فتدخلوا أقسـام الشرطة مذنبين، وتخرجوا أبرياء.

فصمتـوا جميعًـا أمـام حجـة الرجـل الأعرج القويـة، فعـادوا لدفع النقـود، ظل الأعـرج يجمع الإتاوة منهم، لكن بعدها اعتزل السـائقين، وترك لحيته، وارتدى جلبابًا أبيض قصيرًا، وظل صاحبَ حُجة قوية كما كان، اليوم يُقنع الناس للذهاب للمسـجد؛ لأداء الصلاة المكتوبة. قدم الشيخان نفسـهما أنهما تابعان لجماعة الأمر بالمعروف، وتلا أحدهما قـول اللـه -تعالـى-: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾.

وانتهى الشـيخ من تـلاوة الآيـة الكريمة، وواصل الآخر يشـرح لي النـص، وأن كثرة الابتلاءات التي يُبتلى بها الناس اليوم، هي دليل قاطع على كثرة الذنوب.

- يـا بُنـيّ، أراك مهمومًـا فعُـد إلى اللـه تنصلح الدنيا لـك، ويذهب هَمُّـك، وينجلـي الغَم، أكثر شـيء يزيح عنك الهموم هـو الصلاة، وأن تلتقي بربك، أَتَرْفُض لقاء الله، أو تكون ضيفًا في أحد بيوته؟!

ذهبتُ معهم للمسجد، وصلينا الفرض، وظللنا جزءًا من الليل في الذِّكْر، والصلاة، وقراءة القرآن، أشعر بانشراح الصدر، نسيتُ هموم الدنيا كلها.

قاصدًا البيت، أحمل صندوقي بفخر بين دروب مساكن عزيز عزت غير المُمَهدة، يشتمُّ أنفي رائحةً غير طيبة، تخرج من البيوت، والنوافذ، بعض مياه الصرف الصحي، التي بدأت تظهر في شوارع المساكن بكثرة، يبدو أن شبكة الصرف الصحي أصابها الهِرم، تتدفق المياه من الأرض في بعض الأماكن، كثُرت الحشرات، وظلَّت حشرات الناموس شريكًا لنا في المضاجع تُقلق راحتنا، ومازلت أفكر في كلمات الشيخين، أشعر أن روحي متشبعة بشيءٍ من الرضا والقناعة، والفراغ الذي لا نهاية له يسكن أعماق نفسي، لمْ يَعُد يسكنها، مثل الفراغ الذي جلستُ صغيرًا أتأمله بجوار جبل قريتنا، فراغٌ لا نهاية له إلا سُحب ضبابية، فماذا يوجد خلفها؟ واليوم أشعر بأن حصار الأفكار تحطم، وعرفت النفس طريقًا جديدًا تدركه بعد متاهة كبيرة، بين دروب الحياة التي تخبطتُ فوق أرصفتها.

قرأت بعض الآيات من كتاب الله، الذي أهداني إياه أحد الشيخَيْن، وأتمنى دخول محروس عليَّ؛ ليواصل هذيانه، ولم أعلم أن لهذا الهذيان وقعًا جميلًا في النفس، إلا عندما يتبدل لجمودٍ ويأس، ومنذ أيام ليس له وقت محدد للخروج، أو للعودة، اكتشفتُ بعد هذا الحادث أنني أهتم بوجود أخي بالغُرفة، أفرح لوجوده بجواري ليلًا، أشعر

بالطمأنينـة، أتركـه نائمًا صباحًا، أنصـرف للعمل، وكذلـك أمي عندما نتناول عشـاءنا توصينـي بألا أنام، حتى يتناول محروس طعام العشـاء، وتركـتُ لـه بعضًا مما نتنـاول، وقبل ذلك لـم تهتم بـه، وكان يأتي آخر الليـل يبحث عن بقايا الطعام بالقصْعَـة الألمونيوم، في كثير من الليالي يجدها فارغة، يتَّهمنا بأننا مفجوعون؛ لتناولنا الطعام كله.

اقتربـتُ الليلة من والدتي، قبَّلت جبهتها، وسـألتها عن صحتها التي تتدهـور، ووجهها وضح عليه الكبَر في سـنواتٍ قلائل، يجب الذهاب إلى طبيب، همسَـتْ وهي تسـعُل: فهي بخير؛ لكن ما يقلقها هو صمت محروس، الذي لم يحضر الليلة مبكرًا، فقرأت هذا القلق على وجهها، انصرفت عن قلق أُمي، ووصيّتُها بعشاء أخي محروس، اشترى أخي ليلة أمسِ مسدسًا صغيرًا (فرد) طلقة واحدة، يخفيه تحت الوسادة في حِرص شديد، ظننت أنه بدأ يتاجر في السلاح، لكن حالة الصمت المريبة التي عليهـا جعلتني أعيد التفكير مرة أخرى، لمْ يقطع حبل ظنوني، بل جعله متينًا ويقينًا عندما قال إنه لم يعد يسـتطيع العيش بين الناس على محطة السيارات، عينه مكسورة، مَن خشيه أمسِ فاليوم يتهامس ويتغامز عليه، منهم مَن واجهه بحقيقة ما فعله معه رجال الشرطة أيام اعتقاله، بأنه صار لوطيًّا ذا عِرض مُهتّك، يشـكو لي، ودموعه مختلطة بدخان سـيجارته، التـي ظللت أبتاعها له كل ليلة عند حضوري من العمل أثناء أيام العزلة والحزن، وأحيانًا أشاركه حرق بعضٍ منها، ربتُ بيدي على كتفه، وأول مرة منذ سنوات أحتض فيها محروس، شعرت بقشعريرة تجتاح كياني، وأؤكـد له أن الذين فعلـوا به هذه الأفاعيل المنحطة هم ليسـوا برجال،

وتيقنتُ أن هناك شيئًا بقلب الرجل يُشبه الزجاج، إن تهشم فلا أمل في إصلاحه، ولا أعرف له اسمًا، وكلٌّ منَّا يُسميه كيفما يشاء.

خَلدت إلى النوم عندما شعرت بمحروس حضر للغُرفة، ولم يُثر الفوضى، فكلما عاد يرقد بجواري في صمت، أراقبه وهو يتناول عشاءه، ثُمَّ أطفأ المِصباح، رقدت على جنبي الأيمن، أتمتمُ ببعض الأدعية، وآيات من القرآن الكريم، ممَّا أوصاني به الشيخان، فهنِئت في رقادي بدون جواثيم تقلقه.

# (11)

استيقظت على صوت ضجيج خارج الغُرفة بالممر، ويبدو أن السرِّيحة يقصدون عملهم، كل يوم يصنعون ضجيجًا، لكن هذا الصباح ازداد الضجيج في وقت مُبكر، ولما وضعت قدمي على الأرض، وجدتها تغوص في بِركة من المياه، التي أغرقت الممر والغُرف، أقلب بصري بين محروس، وصوت (شخيره)، وجسد أمي الساكن، تجمَّع السكان كلهم أمام مدخل الغُرف، منذ أن جَمَعْنا نقودًا لكي نغير باب الحمام وأرضيته، لم تجمعنا الظروف إلا عند حضور موظف المحافظة، الذي خذل أحلامنا بالمشاركة مع الأستاذ: رأفت، الذي تحدث لبعض الناس في آذانهم: إن أرادوا شققًا جديدة؛ فعليهم منح الرجل رشوة خمسة آلاف جنيه كما فعل هو معه.

حَمَلنا سمير خارج غُرفته على مقعده المتحرك، انتظرنا سيارة المحليات حتى العاشرة صباحًا، ولمْ تأتِ بعد، يقفز أطفال السرِّيحة، ويلعبون، ويتراشقون حفاة عُراة، كأنهم يتفاخرون بعوراتهم: بنات وبنين، حتى بعد أن نَهَرهم الريس عبد الحكيم، ظلوا على حالتهم، وأمهاتهم كاشفات عن سيقانهنَّ، يغدون ذهابًا وإيابًا داخل الممر، تجمَّع النسوة أمام غُرفهنَّ، وكلُّ واحدة منهنَّ مُتخذة لنفسها مرتفعًا عن الماء تقف عليه، وأخرى تخوض في الماء مستمتعة بالبرودة، وأُم سامية معها سامية، نسمع ضجيج نساء السرِّيحة يصل إلينا عند الشارع

العمومي، أرقب زوجة عمّ عرفة، يطلُّ رأسها على استحياء، وتعود للداخل عندما تجد رجلًا يمر بالممر مُشمرًا عن ساقيه، ونقف في الشارع والمياه تزداد بالممر، يرفع الريس عبد الحكيم وجهه إلى أعلى (العمارة) ذات الطوابق الستة، ينادي على السكان، يمازحهم بأن يكفوا عن تناول المحاشي، واستعمال المياه، حتى نجد حلًّا لهذا الأمر، لكن دون مُجيب، فشباب ورجال السرِّيحة يتبادلون السجائر والمزاح، كأن ما حدث ويحدث الآن أمر لا يثير حفيظتهم، بعضٌ من الناس يمرُّ بجوارنا، يتأفف مِنَّا كأننا مُصابون بالجَرَب.

بعد طول الانتظار همست للناس جميعًا، بأن مَن ينتظر الحكومة ينام ليلته دون عشاء وغطاء، وجمَّعنا من كل غُرفة نقودًا، وأحضرنا الرجل الذي يُصلح البالوعات، وحضر بدراجة بقوة الدفع، ودفع سيخًا من حديد ذا رأس حاد موصول بآخر، وأنهى مَهام عمله على أكمل وجه، ولم يبقَ لنا إلا المياه الراكدة في الممر، والغُرف ذات الرائحة العفنة، التي تعوَّدتُ عليها الأنوف، وشاركنا الذباب ذهابًا وإيابًا في الممر والغرف، حتى كلاب الشوارع وجدت ضالتها، وولغ الجرو من ماء الممر، ضربه خميس بحجر؛ لعلَّه أصابه لسماع نباحه، وهو يفر هاربًا.

كان هذا الممر دومًا نظيفًا، وهناك اتفاق بين سكان الغُرف، بأن كل سيدة مسؤولة عن التنظيف أمام غُرفتها، ومنذ رحيل الأستاذ: رأفت عاد السرِّيحة إلى سلوكهم القديم، يضعون أشياءهم؛ لكن مرصوصة منظمة، كأنهم يعرضونها للبيع، ويأتي بعض سكان الغُرف المجاورة لشراء تلك الحاجات (الروبابيكيا)، أشعر في بعض الأوقات بأن الممر

صار ممرًّا تجاريًّا، فوقفوا جميعًا كسِرب نمل، حمل أولهم سطلًا، أو إناءً مُمتلئًا يعطيه للآخر، ونضحنا الماء، وصوتٌ صارخ يعلن استغاثة، سقطت أُم سامية على وجهها، فضحكنا جميعًا من سقوطها، تتحامل على زوجة عمّ عرفة الغريب، الذي ظل صامتًا بيننا كثيرًا، ولا يُبدي الرأي، وهزَّ رأسه بالموافقة على أي شيء، واتفق عليه الناس جميعًا، انتهيت من مساعدة أمي في تنظيف غُرفتنا، وأسمع بعض التعليقات من رجال السرِّيحة، بأن الجو صار باردًا، فيردُّ عليه آخر بأن الناس تذهب إلى المصيف، ويأتي المصيف إلينا، بدأ المزاح بالأيدي، والتراشق فيما بينهم، صوت قهقهة يصل إلى غُرفتنا، تمتص أمي شفتيها مُتعجبةً، وتبتسم من كلام رجال السرِّيحة وتهمس:

- هَمّ يضحَّك وهَمّ يبكِّي.

تجلس على السرير تُجفف عَرَقها بطرف ثوبها، تنظر إلى محروس الذي ظل نائمًا مُعطيًا ظهره للناس جميعًا، ووجهه تجاه الجدار، أعلم أنهُ مستيقظ، وعندما انتهينا من نضح المياه، قام وارتدى ملابسه، وخرج في صمت إلى الشارع، وأسمع صوت طرقات على الباب، أحضرت سامية حصتها من النقود، التي دفعتُها نيابة عنها للرجل الذي أصلح البالوعات، ولمْ أجد جديدًا طرأ عليها، فنظرة عينيها لا تزال تداعبني، يبدو أنها تناست أمر قُبلاتي، التي جعلتني أتوارى منها خجلًا، ففي هذا الكَمّ من أحداث اليوم المتعاقبة نسيتُ أن أقدم المساعدة لسمير مبروك، فتوجهت إليه بعد الانتهاء من مساعدة أمي، التي تركتُها تواصل

حديثها مع سامية، وتناسيت منذ أيام أن أضع الدواء السائل في عيني، ونتيجة النسيان بدأ ألم عينيَّ يزداد كل ليلة قبل أن أنام، أنظر إلى الشارع العمومي خارج الغُرف، أحذية، وحُصر من خوص النخيل، وأخرى من البلاستيك، وبطاطين قديمة، وبعض الملابس، ومَراتب حشيتها السوداء بعد أن كانت بيضاء برزت خارجها، ووسائد مهترئة، هذه الأشياء كلها متناثرة أمام مدخل الغُرف، وروائح كريهة تنبعث منها، وكل مَن يمر بالشارع يضع يده على أنفه.

ما أحوج النفس لبعض الوقت من الهدوء! أشعر بالحنين إلى القرية والنخيل، والربوة خلف الجبل، كلما تذكرت كلمات والدي عن القرية، وعن أخيه، بأن العودة إليها ما هي إلا بداية طريق جديد من الاحتياج لا نعرف هل نجد ما يسد الرمق مثل هنا، أم نظل أضحوكة بين الناس! والحنين إلى الطفولة دومًا مصاحب أحلامي، ومع هذا الحُلم الذي راودني ليلة أمسِ، ولا يزال يراودني منذ سنوات، وتلك الغُرفة الممتلئة بالكتب التي أتحسسها، والسقوط بالحفرة، انصرفتُ إلى غُرفة سمير الذي دخل إليها بمساعدة السرِّيحة، وجلسنا نتسامر عن كل ما دار بين الناس في هذا الصباح؛ لأن هذا الجمع يُعد استثنائيًّا في حياة سكان الغُرف، وهمس لي سمير ساخرًا من حالنا:

– تعوَّدنا على أن الناس تجتمع في أوقات الحزن والفرح، ونحن أهل الغُرف نجتمع في المصائب فقط.

لملمتُ فرشة غُرفة سمير، والأشياء كلها التي لحق بها الماء حملتها إلى الخارج؛ لأضعها بجوار ما سبقها تحت أشعة الشمس الذهبية المائلة للانسحاب، أعود إلى الغُرفة، وقبل أن أصل إليها نشب شِجار بين زوجة الريس عبد الحكيم، وأُم سامية، على أسبقية دخول الحمَّام للاغتسال، تقف زوجة الريس عند الصنبور، وأمامها الأطفال عُراة تمامًا، لتُدخلهم مرة واحدة إلى الحمَّام، و(ترشُّ) عليهم الماء، يختبئون خلف بعضهم بعضًا، صوتهم الطفولي يملأ الممر مرحًا، كأنهم في عرض دمياتٍ لحانوت ملابس، تتجهم زوجة الريس عبد الحكيم بصوتٍ خشن، وتقول:

- كان دوركم أمس في الغسيل.

فَارْبدَّ وجه أُم سامية غضبًا، وتجذبها بيديها؛ لكي تُبعدها عن باب الحمَّام، الذي تقف عليه لتمنع أيّ أحد من الدخول:

- "يا ولية باقولك جسمي كله أرف".

كأنهم جميعًا متأهبون للانقضاض، وحدث شجار بين النسوة، تشابكت الأيدي، ومُزقت الملابس، والتصق بعضها بأجسادهنَّ التي امتزجت بالطين، وبقايا الأشياء المبللة من ماء الصرف الصحي، امتلأ الممر بسكان العمارة، وكلُّ مَن مر بالشارع العمومي أمام المدخل، نزل سبع عشرة درجة على صوت صياح النسوة، وهنُّ يتبادلنَ الشتائم.

يدخل يقف، ويشاهد الأمر، ثُمَّ ينصرف دون تَدَخُّل، ويتمتم باللعنات والشتائم التي تُكال لأصحاب الغُرف، بأننا لاجئون وأهل العيب.

# (12)

ما زلتُ أبحث منذ الظهيرة عن الهدوء، كالباحث عن الإبرة في كُومِة قَشّ، ولن يجدها إلا بحرق كومة القَشّ، ولن يجد بعد حرقها إلا رمادًا، ويحلُّ الظلام داخل الممر والغُرف مبكرًا عن الشارع الخارجي. الوقت في الساعة السادسة مساءً، وجلست على باب غرفتنا، ووجهي صوب الممر شبه المُظلم، وظهري لغرفتنا، أهرب من عين أمي، أتركها تعيد ترتيب أشياءها، التي حولتها مياه الصرف الصحي إلى غرفة فوضوية، ولا تسمع أُذني إلا بعض الهَمْهَمات خلف الأبواب المغلقة، صوت صريرٍ لبابٍ يُفتح، لكنه يُقفل بسرعة، من خلفه بكاء زوجة عمّ عرفة الغريب، يهددها إن لم ترضَ بالعيش معه على هذه الحال؛ فلْتخرج من هنا، وجهرَ بتهديده:

– عليَّ الحرام من ديني إن طلعتِ برَّه العَتبة ما تدخليها تاني.

لمْ أجد جوابًا منها إلا صوت بكاء ونهنهة، وزجاجًا يُحطم، ويلعن الرجل تلك الأيام، بأنها صارت غبراء على رأسه، أنه يتمنى الموت؛ حتى يستريح، وخطف حواسي صوت صرير باب غرفة أُم سامية يُفتح، اشتمَّت أنفي رائحة عِطر، فانتظرتُ طويلًا بعد أن انتهيتُ من تنظيف غُرفة سمير؛ حتى جاء دوري للاستحمام، مرَّ اليوم دون عمل، ولم تستطع أُمي أن تُعد لنا طعامًا، وأحسنت هندامي، ولا يزال شَعر رأسي

مبلـلًا، خرجت لأبتاع لنا ما يسـدُّ الرمق، وانتظـرتُ أمام حانوت البقالة بعض الوقت؛ لكثرة المشـترين، وعيناي ترقبان أُم سامية متزينة بصحبة رجـل لا أعرفه، يركبان سـيارة أُجـرة، وذهبتْ بهمـا، تتَلفَّتْ أُمّ سـامية حولها، تخشى أن تبصرها العيون.

مـرت ظنونٌ كثيرة بخلدي، لكن ابتلعتُها مع الطعام الذي جلسـنا أنا وأمي نتناولـه، ولمْ نجلس الليلة كالعادة نفترش الحَصير على الأرض، التي لا تزال مُبللة، وجلسـنا متقابلَيْن على سـرير أُمي، نشـعر بالرطوبة التـي تـكاد تزكم أنف كلّ مِنَّا، لكننا تعوَّدنا عليهـا، ولم يثر هذا الصمت ريْبتـي، كمـا كان من قبـل، بل تحول إلى عـادة، خلدتْ أُمـي إلى النوم مبكـرًا؛ لأنها تشـعر بالتعـب ممَّا حـدث، قصدتُ الحمَّـام. وتجاوزت السـاعة منتصـف الليـل، وكلٌّ نِيام الليلـة، عندي اشـتياق للثرثرة، لكن غُرفـة سـمير مظلمة، وتتطلع سـامية أمـام غُرفتها برأسـها تجـاه الباب الخارجـي، واقتربـتُ منها أحدِّق النظر بصفحات وجهها، تبدو عابسـة الجبين قلِقة، فسألتُها عن سر قلقها: هل من مساعدةٍ أقدمها؟

هزَّت رأسها بأنها بخير، تبسَّمت: أنتظر أُمي.

جال بخاطري مشهد الأم بصحبة الرجل، تدعوني للدخول لمشاهدة التلفـاز معها، وهـي الغُرفة الوحيـدة التي تمتلك تلفـازًا بالألوان الآن، كان من قبل الأسـتاذ رأفت. فكنتُ مترددًا، تذكرت كلمات الشـيخَيْن: إن التلفـاز حـرام؛ لِمـا يعرضه من أفـلام تحضُّ على الفسـق، وأن كثرة الذنوب تذهب بالنعم، وتجلب النقم بدون مبالاة: "يسخطوك يا قرد!".

عادت الرغبة في الحكي؛ لتملأ رأسي، تقدمتُ خطوات ببطءٍ تجاه غُرفة سامية، وتضع مقعدًا خشبيًّا صغيرًا أمام الباب، حتى تضمن بقاءه مفتوحًا، إلا عن تلك الستارة من القماش التي تحجب الرؤية، وهذا المقعد قد ضربه محروس بقدمه، عندما همَّ بمضاجعة أُم سامية، التي ضربت به نهار اليوم زوجة الريس عبد الحكيم في الشجار، لكنه لم يصبها، هو شبيه بمقعدي الذي أصطحبه بصحبة صندوقي، قفلت سامية أزرار البيجامة، تُخفي شقًّا بين نهديها، أشياء جديدة تهتم بها عند لقائنا، تسألني ماذا أشرب؟

هواء جاف ساخن يلفح وجهي من مروحة، تقف على قائم حديدي في أحد أركان الغرفة، التي تُشبه المشرحة، كأنَّ كل شيء بها يحتضر، أو احتضر بالفعل، وأتفحص تلك الصور المتحركة على التلفاز، اختلطت عليَّ أحيانًا تلك الألوان، أمازحها: أي شيء من يدك الجميلة فهو جميل.

تبتسم، تمدُّ يدها بمشروب غازي ساقع، أرتشف، وأداعبها بأن مشروبها كثير الحلاوة، ويبدو أن سُكَّره زاد عن حده عندما لمس يديكِ، فضحكنا معًا، وحكت لي ما لم أشاهده من الفيلم، الذي كان صناعة "هوليود" لكن بخلدي سؤالًا مُلحًّا عن والدتها؟ وابتلعتُه مع المياه الغازية، زفرت سامية نفسًا عميقًا، أشعر بلهيبه، بعد أن ارتشفت من كوبها رشفات متعاقبة، وجدتها تتفحص قسمات وجهي، تلك الخطوط المتعرجة التي رسمها الزمان على وجهي مبكرًا، وهمست

بشيء من الانكسار: أعلم أننا متشابهان، وكلٌ منَّا يشعر بالوحدة منذ أن قدمنا إلى القاهرة.

لا أعلم سر هذه الكلمات، التي شعرت بمجرد سماعها بقشعريرة تجتاح كياني؛ لأنها أجادت الطَّرق على لحن يطربني جدًّا، دومًا أشعر بالوحدة حتى عندما أجالس والدتي وأخي، ولمْ تنتظر مني جوابًا، تواصل حديثها، وزادت الليلة وحدتها، ثُمَّ صمتَت برهة، وجهها يبدو عليه الحزم وقالَتْ:

- أُمي تتزوج الآن، وقد ذهبتْ لعقد قِرانها زواجًا في السر بعقدٍ عُرفيّ.

صمتٌ ولا أجد ما أقوله، هل أبارك لها، أم أواسيها؟ تواصل حديثها، كأنها خطيبٌ بليغ أجاد القول، هي جامدة الملامح تبوح بما تحمله من مشاعر تجاه والدتها:

- يجب النظر لأنفسنا، ورغباتنا، دون أن نضع في الحسبان لما تحمل صدور الآخرين من مشاعر.

هززتُ رأسي: حقها أن تتزوج، ولمْ أرَ أيَّة غضاضة في ذلك، فوالدتكِ سيدة شجاعة قصَّت عليكِ ما تنوي فعله، خيَّرتكِ بين زواجها المقرون بسعادتها، وبقائها حزينة تنتظر زوجًا يعود، أو لا يعود، فالمترمِّلة أفضل منها حالًا.

همست سامية بانكسار: أجلْ، حقُّها أن تتزوج، وإن لم أوافق فكانت ستتزوج.

تبسمتُ في هدوء، ودار في خلدي ما كان من محروس مع أم سامية، يبدو أن محروس حرَّك غرائز ساكنة: فرُبَّ ضارةٍ نافعة.

هزَّت رأسها تصدق على كلماتي، محاولة يائسة منها لتغيير مجرى الحديث، مدَّت يدها لي بصورة أخرجتها من حافظة يدها الجلدية، سألتني عن رأيي فيها، الصورة لها وهى ابنة العاشرة، فأخذت تسترسل عن طفولتها السعيدة، هذه الصورة قد الْتقطها لها والدها أثناء عودتها من الكُتَّاب الملحق بالمسجد، تشعر بالفخر، وتُكمل حديثها:

– حفظت سبعة أجزاء من القرآن الكريم؛ لكن عندما رحلنا إلى القاهرة توقفت عن الحفظ، بعد سفر والدي الذي طال.

هنا توقفت سامية عن الحكي، وبعينيها دموع متحجرة حائرة، تدقق النظر في صورة أخرى لوالدها، جميل الملامح، حادّ النظرات، رحل الرجل ولا يعلم أحد إلى أين مقصده، ولِمَ رحل؟ لكن سامية تتهمُ أمها بأنها هي سبب رحيله؛ لسوء عِشرتها، وتسبُّ الأم دومًا الرجل في غيبته، وتنعت ابنتها "يا بنت الطفشان"، فلم تحتفظ أُم سامية لزوجها بذكرى طيبة، وشكت لوالدتي أنه رجل سِكّير مُقامر خائن، أَعدْتُ لها صورتها، وطلبت مني أن أحتفظ بها إن كنت أُحب ذلك، لم أجد ما أجيب به غير وضعها بجَيْب جلبابي، ونحن نتبادل النظرات.

انتهى الفيلم الذي لم أنتبه لأحداثه، ولم تنتبه سامية أيضًا؛ لأنني صرت رجلًا يجيد ارتداء الأقنعة، وكل قناع يجب أن يكون مناسبا للمكان الذي أنتقل إليه، وأتحدث بلسان وبلغة دون الأخرى؛ فتجدني

أحيانًا بعين متربصة مترصدة، وأخرى تعرف الخجل والحياء، والبحث بين السوق والمسجد عن حارس ابن تلك القرية البعيدة، فلا أجده، تُمحى ذكريات الطفولة من ذاكرتي.

فأمازحها، وأقصد أمر زواج والدتها:

- يبدو أن هناك قصة حب في هذه السن.

وضحكت سامية ضحكة ممتزجة بمرارة، وتتفحص وجهي عن قُرب، تمسك بالغطاء تُعيد ترتيب سرير والدتها، وتُحسن وضع الوسادة، وترمقني بطرف عينيها: أَلَمْ يحِن الوقت بأن تفكر في الزواج يا حارس؟

صمتُّ، ولمْ أجد ما أجيب به، فهل أشكو لها حالي البائس، وهي تعلم كل شيء، أم أصدمها بأنني لا أصلح لها زوجًا، وانتشلني من حيرتي صوتٌ ينادي من الممر لإحدى نساء السرِّيحة:

- "يا دكتورة سامية الحقيني الواد سُخن نار".

# (13)

خبـر أنتظره بين الخوف والحـذر على الرغم من توقع حدوثه، لكنه نـزل علينا أنا وأمـي كالصاعقة، فصوَّب محروس مسدسـه تجاه ضابط الشـرطة، الذي تولَّى حفلات تعذيبه في لياليـه الغابرة، ظل أيامًا صامتًا يراقـب تحركاتـه، وقـد سـنحت الفرصـة في هـذه الليلة وقـت خروج الضابط من قسم الشرطة، فأطلق رصاصة اخترقت ظهره، لتتوغل داخل أحشـائه، مزقت ما طالته كله، ولمْ يسـتطع الفـرار، انقضَّ عليه الجنود، وكبّلوه بالقيود، وسـحبوه إلى داخل قسم الشرطة، ويركلونه بأحذيتهم الضخمـة، وهـراوات ذات رأس مُدبـب تنزل على جسـده بـلا رحمة.

بعينيـن تحوطهما هالة زرقاء، ووجه منتفـخ، وملابس مُمزقة تبادلنا النظرات السـاكنة المنكسـرة داخل قسـم الشـرطة، بصحبتي المحامي صديـق سـامية، ذهبت مرة أخرى أسـتجير به، فضاعف قيمـة أَجره في هذه القضية، جلستُ مع محروس، قرأت مليون سؤال بوجهه العبوس؛ لكـن لـم أجد أبلغ مـن الصمت ردًّا علـى حيرته، عجـزه المريب الذى يرتسم على وجهه ذي الملامح الجامدة، يوصيني بوالدتي وبنفسي، أن أظل محافظًا على عملي، ولا أفعل مثله، نظرة قاسـية جدًّا تكاد تقتلني، ممتلئـة بالخوف والقوة، اسـتودعتُه بها عندما قاده الجندي إلى سـجنه مـرة أخـرى، انتهى لقاؤنا، وقادَتني قدماي المرتعشـتان خارج القسـم؛ أتحسـس جدرانه الصلدة، التي أشعر بأنها بلا قلب، تلفح وجهي نسمة

رطبـة من نهر النيـل، تُنعش بعضًا من ركام صـدري، وصوت المحامي في أذني يقتل ما بقيَ لي من أمل في براءة محروس، همس وهو يُودعني للذهاب إلى مكتبه، الذي يقع بعمارة كبيرة بجوار قسـم الشرطة، الذي يطلُّ على النيل فقال: الجريمة كاملة الأركان، وأداة الجريمة، واعتراف الجاني، المجني عليه في مستشـفى الشـرطة بين الحيـاة والموت، ولا أمل لنا إلا في حدوث معجزة.

فعـادت غُرفتنا إلى عهدها السـابق أيام مرض والـدي، تغدو الناس ذهابًا وإيابًا، ويسأل الناس جميعًا عن محروس، وزوجة الأستاذ: رأفت تمسـح دموع أُمي، يأتيني صوتها أثناء جلوسـي القرفصـاء أمام الغُرفة، بعـد أن امتـلأت غُرفتنـا بالنسـوة، غابت أُم سـامية عـن غُرفتهـا لأيام، وبيـن غامز ولامز عن سِـر غيابها أغمضَتْ سـامية عينيهـا التي احتالَت بـأن والدتها سـافرت إلى خالتهـا المريضة في مدينـة المنصورة؛ لأنني سمعتُ قبل ذلك أن أُم سامية مسقط رأسها مدينة المنصورة.

تبادلت زوجات السـرِّيحة كلمات المواسـاة لأُمِّي قبل الانصراف، كلمـات لا جدوى منها مع هذا الجسـد الهزيل، الذي اتشـح بالسـواد، وتحتضنها أُم طارق، وتربتُ بيدها على كتفها في رفق، بأنهم جميعًا قد سـاورتهم الهموم، ويجب على المؤمـن الصبر؛ فإنها تعاني من زوجها الـذي صـار كالنار في الهشـيم يلتهم أي شـيء مقابل النقود، والشـركة التـي افتتحها مع عضو مجلس الشـعب، قد جعلته يتخلى عن مشـاركة السـرِّيحة في المشروع الجديد، فيبدو أن الأسـتاذ رأفت يصعد بالسُّلم

الكهربائي بقوة دفع عالية.

تواصل أُم طارق شكواها من زوجها لأمي، بأن ميرفت ابنتها خُطبت رُغم أنفها، قبل أن تنهي المرحلة النهائية من الثانوية العامة، خطبها ابن تاجر الملابس الجاهزة، الذي كان مرشحًا مستقلًّا للبرلمان، وصوره الدعائية كانت تملأ الشوارع، ومُلصقة على الجدران، ودعاني الأستاذ: رأفت أيام الانتخابات إلى السرادق، الذي خطب فيه المرُشح بالناس، وبما سوف يُقدمه من خدمات إن دخل البرلمان، فذهبت على مضضٍ، ولمْ أكمل جلوسي إلى نهاية الحفل، قررت الرحيل من باب السرادق الجانبي، أهرب من حنجرة الرجل المُزعجة، أكثر من قطار المناشي ضجيجًا، يعد بوعود كثيرة أولها: أنه سوف يبدأ البناء في هذه الأيام في دار مناسبات فوق المسجد؛ لتكون مجانًا، ومرت الأيام، وبنيَ الرجل الدار، وتبرع ببعض النقود لبعض المشروعات، التي تُقام بالمنطقة مثل: الجمعيات الخيرية، ولمْ يفُزْ بالمقعد في تلك الدورة البرلمانية، نجح مرشح الحزب الحاكم، لكن التاجر والمرشح الخاسر وعد الأستاذ رأفت بأن الدورة القادمة سوف يكون نائبًا، دون أن يمنحه التفصيلات، وميرفت قد اصطحبها والدها إلى فيلَّا تاجر الملابس خصيصًا، لكي يعرض بضاعته، لكن في صورة تعارُف اجتماعي أنيق، يبدو أن زواج البنات مرهون برغباتٍ عائلية.

* * *

مـرت أيام وصندوقي لا يبرح مكانه في الغُرفة، حتى نفدت نقودي، وما ادخرته بدفتر التوفير، اليوم دفعت جُزءًا منه للمحامي، وما بقي كان طعامًا وسـجائر لمحروس داخل سـجنه، إن أردت أن تصل لمحروس عُلبة سـجائر، فامنح العسـكري المُكلَّف بحراسـته علبة ثانية، كان هذا الأمـر سـاريًا على الأشـياء المُقدمـة له من طعام وشـراب، ظللنـا أيامًا ندعو لضابط الشـرطة أكثر من دعائنا لمحروس، بأن يُشفى من إصابته، تواسـيني سـامية، وقدمت لي مبلغًا من النقود، فرفضته، فتركَتْ الغُرفة ودموعها أصابت قلبي، بدأتُ أفكر فيها بطريقة جديدة، وعُدتُ فأخذت النقود بحجة عدم إغضابها، لكن الحقيقة لشدة احتياجي.

فـي صباح اليـوم التالي سـمعت طرقا علـى باب غُرفتنـا، أم أحمد بائعة البيض، ومعها صديقي: مُرسي بائع الجرائد؛ يسألان عن سر عدم ذهابـي للعمل، وما حكاية محروس مـع الضابط كدَوِيّ مدفع رمضان، وجعلـتُ النـاس تبدأ في الْتهام سـيرتنا، ومَن عافت نفسـه الخوضَ مع الخائضين اكتفى بسـماع الدَّوِيّ فقط، كانت سـعادة أُمّ أحمد منذ شـهر سعادة مؤقتة، تداعب أمي، وتحكي لها عن زوجها البائس اللعين الذي تـزوج بأخرى، أخذ النقود المُدَّخـرة بالبريد وتزوج عليها، وترك البيت دون ترميم:

- ورجال لا يملأ أعينهم إلا التراب.

تواصـل حديثهـا بأنهـا ربيبة بيت عِـزّ، لكن عندمـا تزوجتُ صارت مثـل: الهِرَّة التي تُطعم عميانًا، تضحك بشـيءٍ من الوجع الذي تعودت

عليه، وتواصل حديثها عن زوجها الذي تزوج عليها:

– صدقيني الخائن استرحتُ من إطعامه لم يثمر فيه الجمبري، كان مثل فحل الجاموس يُستخدم للوثب فقط.

تغتصب أمي ابتسامة، توصيني المرأة بأن أذهب للعمل، فعدم ذهابي لن يغير من الأمر شيئًا، ومرَّت دقائق خلَت علينا فيها الغُرفة أنا وأمي، نتبادل الكلمات المقتضبة عن أُم أحمد، وأنها سيدة ضحوك طيبة القلب، أسمع صوتًا يجهشُّ بالبكاء في الممر، خرجتُ لأجد شابًّا طويلًا مُهندم الثياب، يبكي أمام غُرفة عمّ عرفة الغريب بكاءً شديدًا، أقترب لأتقصَّى الخبر، باب غُرفة عَرفة مفتوح على مصراعيه، وتقف زوجته بجوار السرير الوحيد بالغُرفة بوجه مُكفهَر، تمسك بيدها منديلًا من القماش تمسح مُخاط أنفه، وتجفف عرقه:

– عمُّك عرفة مريض جدًّا يا حارس.

قالتها زوجته، وهي تمسح دموع عينيها بكُمّ جلبابها الأسود، اقتربتُ من الرجل، لأجده في حالة هذيان، وحرارته مرتفعة، يوجد بجلده طفح، أفحص وجهه وأدعو له بالشفاء، يجفف الشاب دموعه، ومدَّ يده؛ ليصافحني:

– أنا شريف ابن عمك عرفة.

قفزتْ برأسي حكاية الرجل عن ابنه العاق، الذي حاول ضربه بوشاية من زوجته.

بصوتٍ مرتعش يعضُّ على بنان الندم، شرح لي الأمر، بأن والده مصاب بحُمَّى الضنك النزفية، كما أبلغه الطبيب الذي انصرف منذ دقائق، وأوصى بأنه يجب حمله للمستشفى؛ لأن الحالة تأخرت جدًّا، وهذه الغرفة غير صحية، ولا يمكن استمراره أكثر من ذلك، ويحتاج إلى رعاية خاصة، حملنا جسد الرجل شبه المغيب، ولا نسمع إلا آهات آلامه داخل سيارة أجرة، يواصل الابن بكاءه، حضر الابن من بعد أن أبلغَته هاتفيًّا زوجةُ أبيه، دون علم والده، بأن والده يحتضر؛ فحضر على عَجَل، مرض الرجل منذ أيام غرق الغُرف والممر، كما مرض السواد الأعظم من قاطني الغُرف، من نزلة برد إلى ارتفاع درجة حرارة، وكلٌ مر بهذه الحالة، مرَّت سامية بالتناوب على الغُرف، تعطي للنساء ولأطفالهنَّ الحُقن، عمّ عرفة الذي لم يُعِنْه عمره المتقدم، ولا أمراضه المزمنة على المرور من كبوته، في أثناء أيام المرض التي أصابت سُكان الغرف بعد طَفْحُ المجاري، وكنتُ أسمع صوت (عطَسات) متعاقبة، تأتيني آهات المرضى من غرف متفرقة، وكثرت الحشرات، وظلت قرينة لنا، وتنوعت، وزادت توحشًا، وتُشاركنا المضجع، تنهش في أجسادنا، وتستبيح دماءنا.

وتذكرتُ حكايات عمّ عرفة الغريب، وكان في شبابه من الذين شاركوا في حرب الاستنزاف، وظلَّ بالخدمة العسكرية؛ حتى نال شرف المشاركة بحرب السادس من أكتوبر، وضحك كثيرًا، وهو يحكي لي عن قصص كثيرة، تمتلئ بالبطولة، شارك في قتل عدد من جنود العدو الصهيوني، وأَسْر بعضهم، وهذه من المرات القلائل التي أرى وجه الرجل مبتسمًا،

كيـف كان يقضـي أيامه، ولا يـزال يتذكر اسـم الوحدة، ورقم السـرية، ورقمه العسـكري المحفور على سلسلة حديدية، يحتفظ بها إلى الآن، وحفـلات أم كلثوم التي سـمعوها عن طريق الراديـو يوم الخميس أول كل شـهر يترقبونها، إلى الآن يحفظها عن ظهر قلب، قضى أيام التجنيد ثمانـي سـنوات؛ لظروف الحـرب، والتي مرَّت بها مصر منذ سـنة ألف وتسـعمائة وست وستين، وحتى نهاية ألف وتسـعمائة وأربع وسبعين.

خرج، وكان عمره أكثر من خمسة وثلاثين عامًا؛ لأنه الْتحق بالجيش متأخـرًا لظـروف عائلية، فأُجل تجنيـده مسـتفيدًا من القانون رقم 505 لسـنة 1955 م، وعندما خرج لم يتقدم لشـغل أيَّة وظيفة حكومية، كما فعل زملاؤه الذين تكفلت الحكومة بتعيين كل مَن تقدم لشـغل وظيفة، وانصرفَت السيارة تحمل جسده المتألم، وزوجته، ودموع الابن، انطفأ مصبـاح غُرفة عـمّ عرفة الغريب، الـذي عاش بيننا يحمل اسـم الغربة، وطبعهـا، وجلسـت فـي ركـنٍ بعيـدٍ بغُرفتـي، يحيطني الظـلام من كل جانب، داخل أعماق نفسـي أشـعر بالأسـى تجاه ما وصل إليه الرجل!

# (14)

يُولـد من رحم الوجع الصبر، هكذا تعلمتُه؛ لأنني لا أملك بديلًا إلا هو على المصائب التي تُشبه تعاقب موج البحر، ومداعبات مُرسي بائع الجرائـد، وأُم أحمد، لـمْ تخرجني من حالة الصمـت التي تحيطني من كل جانـب، قضيـت اليوم في حديث طويل مع نفسـي كالعادة بغُرفتي، التـي تُشـبه المنطاد الممتلـئ بغاز "الهيليـوم"، من صفاته خفـة الوزن، وليـس له لـون، ولا طعـم، ولا رائحة، بل معلق بين السـماء والأرض، وشـبيه بجيل عمّ عرفة الغريب، أقطعها رائحًا وغاديًا، ولا تهدأ الأفكار في رأسـي، وأخرج؛ لأطوف بالشوارع التي تُشـبه أنبوبًا ممتلئًا، تتزاحم الأجساد، وتتصارع، وتهرول، وكأن الناس جميعًا في حالة من الجنون يُطارَد، أو مُطارِد، أقف أمام ضريح سـيدي إسـماعيل الإمبابي، أتضرع بـأن يُفـرج الله كربَ أخي محروس، أمسـح مُخاط أنفـي بكُمّ جلبابي، كمـا فعـل والدي الذي لم يـؤتِ تضرعه ثمـاره، لكن ظـلَّ يواصل إلى مماته، أسـير بشـوارع المدينة، أمر بنفق المنيرة، تغدو السـيارات ذهابًا وإيابا، أشارك على الرصيف الباعة والشحاذين، يبثُّ المشهد الكآبة في النفـس، وأدور بهذا الصنـدوق كأنه قطعة من جسـدي أينما حللتُ، لا أنتظر زبائـن، ولا أنظر إلى واجهات المحلات، فلْربما يطلبني أحد، أو لا يطلبني، بل السير هو السلوان الوحيد لي، وواصلتُ البحث عن هذا المجهول بعيد المنال؛ لملءْ فضاء نفسي بالرضا والقناعة المُطلقة.

أجلس داخل مسجد الرحمن بشارع الاعتماد، فقد حملتني قدماي إلى هناك، ومبتغاي راحة النفس من هموم الدنيا، فغايتي البحث عن جنة الآخرة، وطريقها الوحيد هو طاعة الله، بعد أن تيقنت أن ليس للفقراء جنة على الأرض، ربَتَ بيده على كتفي، ألْتَفَتُ إليه؛ أفحص وجهه المبتسم، فيمدُّ يده، ويصافحني: تقبل الله.

سألني الرجل الأعرج -الذي كان بصحبة الشيخين- عن أخي محروس: كيف صار الآن؟ إنه يعرف جيدًا قصة أخي مع ضابط الشرطة، وما تعرض له من ظلم، يبدو أن دَوي مدفع الحادث قد وصل إليه، أشعر بشيءٍ ما يهزُّ أطراف جسدي، لترتعش من شدة الغبطة التي ألمَّت بي، منذ أن قدمت إلى المدينة الكبيرة فلمْ أتحدث إلى أحد بطمأنينة غير سامية وسمير، أسمع من الأعرج ما تتوق نفسي لسماعه، ألا وهو التمرد على الواقع، تمرُّد في ثوب الإيمان، ودار بيننا حوار طويل عن سوء أحوال الناس، والطبقية، والشرطة، وبطشها بالناس، والحكومة وسلبياتها، وقد سألني: هل لو هناك عدل لسكنتَ هذه الغُرفة الوضيعة؟ فأخذ يضرب لي بعض الأمثلة عن السلف الصالح، وأيام الخلفاء الراشدين، وكيف ساد العدل هذه الأرض، وحكى قصة سيدنا عمر بن الخطاب عندما نام تحت الشجرة، وأتى له رسول أعدائه الذي قال قولته في الرجل:

"حكمتَ، فعدلتَ، فأمنتَ، فنمتَ يا عُمر".

ختم حديثه بأنه يجب أن يسود العدل بين طبقات المجتمع كلها،

وأن دولة الإسلام سوف تعود لمجدها وإلى الخلافة الإسلامية، تخرج كلمات كبيرة من فمه، تبثُّ الأمل، تحفِّز العزيمة، وأشعر أن بيده صولجان الملك، كلامه حسن يمسُّ القلب، فهمستُ أن الله يهدي مَن يشاء من عباده، وإن أراد بي الخير، لجعلني أسلك مسلكه، لكنني دائمًا لا أظل على حال، بل متغير متقلب الأمزجة مثل: ليلة خريف، ولا يزال له قدرة كبيرة على الإقناع؛ بل أصبح متمرسًا.

وقف الشيخ العجوز إمامًا، واصطفَّ الناس جميعًا خلفه، وصلَّى بنا كل ركعتين منفصلتين، وبكى الشيخ، فبكينا من خلفه متضرعين إلى الله: أن يخفف عنا غضبه، وينتقم من الظالمين، ويتلو علينا آيات العذاب، وفي نهاية الركعة الثانية آيات الرحمة والمغفرة.

مرَّ نصف الليل الأول بين الدعاء، والبكاء، والخشوع لله، انجلى عن القلب الصدأ، كان تراكُمه أكثر من صدأ القُفل الحديديّ على الغُرفة المُغلقة، حملتُ صندوقي إلى البيت، وأنا أعِد الرجل الأعرج بمواصلة ما بدأت الليلة من الطريق الصحيح، العودة إلى الله، لا تزال مشاعر الغبطة هي حالي، وما أصابني ليس مصائب، بل ابتلاء للمؤمنين.

وصلتُ إلى الممر الضيق بين الغُرف، والناس جميعًا نِيام، سعلتُ عدة مرات من هذه الرائحة النفاذة التي تزكُم أَنفي، شيءٌ ما يحترق، حرق أحد رجال السرِّيحة بعضا من الفُلفُل الأحمر الحار الجاف؛ لقتل بعض الحشرات بغُرفته، صدى صوت سُعالي المتواصل لم يُقلق أحدًا، بل ظلَّ الممر خاويًا على عروشه، إلا من بقايا الأشياء التي رُصت أمام

الغُرف بعد الحادث الأخير، عندما ضُبط رجل القمامة في الفجر يسرق الأحذية من أمام الغُرف، لم يترك أحد حذاءه أمام غُرفته كما تعوَّدوا جميعًا لسنوات.

يحمل السرِّيحة معهم أشياءهم، التي يرونها ثمينة إلى الغُرفة، تزاحمهم خير من أن يفقدوها، عندما تعجز الغُرف عن استيعاب بضاعتهم كلها، يتركون بعضًا منها بالممر، ويتركون أبواب الغُرف مفتوحة طوال الليل، إلا من ستائر القماش؛ لتحجب الرؤية، حتى والدتي وجدتها نائمة، ولم تستيقظ عندما حضرت، واضجعتُ على سريري، ومنذ القبض على محروس، أول مرة في حياتي أصبحت أملك سريرًا كاملًا، ولمْ أهنأ بالنوم منذُ أن مُلئت الغُرف بماء الصرف الصحي، تسللَتْ حشرة البَق إلينا من فرش إحدى الغُرف، الذي نُشر بجوار أشيائنا، أصَرت أمي على إخراج أشيائنا جميعًا حيث الشمس للنظافة، انتقلتْ إلينا حشرة البق اللعينة سريعة التكاثر، مثل نساء السرِّيحة، ذات الرائحة الكريهة مثل: أطفالهم، ظل البق شريكًا لي بديلًا عن أخي محروس، أتقلب على سريري أسمع صوتًا لوقع أقدام شباب السرِّيحة قادمين من المقهى، وارتفع صوت لطرقات أحجار الدومينو بعد دقائق، وقد دعاني أحدهم ذات ليلة، وجلست بجوارهم بعض الوقت، وأراقب ما يحدث، واكتشفت أن بعد منتصف الليل تنقلب الغرفة إلى مكان للمقامرة، ونشب شِجار كبير بين اثنين من المقامرين، وتعالت الأصوات، فقام الريس عبد الحكيم من نومه، وصار حافي القدمين إلى الغرفة التي بها الشِجار غاضبًا، نَهَر الناس جميعًا، وأمرهم

أن يكفُّوا عن هذا اللهو، وظلوا يلعبونه في الخفاء بعد أن نام الرجل، ذهبت إلى غُرفة سمير، أفحص وجهه، مصفرّ قليلًا، ويبدو عليه التعب، وعيناه غائرتان، ابتسمتُ؛ لكي أخفف عنه وطأة الآلام التي دبَّت في أعضائه، وأطرافه المرتعشة: هل أصطحبك للطبيب يا سمير؟

ضحك في وجهي بهدوء بعد أن سعلَ عدة مرات من رائحة حرق الفُلفل، التي لا تزال تُعبئ فضاء الممر، وتتسرب إلى الغرف:

– يا حارس، الشافي هو الله، كانت لك أُمنية بأن تحملني إلى الحمَّام؛ لتغسل جسدي.

– إلى الآن لا تزال تراودني هذه الأُمنية.

أحمل عنه ما بقي من قمامة داخل كيس بلاستيك، وألقيتُ به في الخارج، يسألني عن محروس، فأجبتُه بأنَّه ليس هناك جديد، وننتظر موقف الضابط الذي لا يزال يرقد بمستشفى الشرطة، زفرت نفَسًا عميقًا، أكملت حديثي: حفلات التأديب مستمرة، كان الله في عونه. وشعرت بوخزةٍ داخل صدرى الذي امتلأ بالجُبن، من موقفي السلبي تجاه أخي ألَا وهو عدم الخروج، والبحث عنه كما أمرتْنِي أُمِّي.

تبسم، ثُم أعطاني كتابي "طوق الحمامة"، الذي منحتُه له منذ شهور طويلة؛ لكي يقرأه، فقد نسيتُه، ولمْ أبحث عنه للقراءة؛ لأن ما فيه صار ماضيًا بلا رجعة، اهتزَّ جسد سمير الصغير على السرير مبتسمًا:

– الليلة يا صديقي سوف أحقق لك أمنيتك.

حملتُ إلى الحمَّام إناءً كبيرًا ممتلئًا بالماء الساخن من على الموقد، ثُمَّ حملتُ خلفه سمير، جسده يُشبه جسد طفل لم يبلغ الثماني سنوات، وخلعتُ عنه ملابسه الداخلية، التي رأيت عليها بُقع المَنيّ الجاف، أجلسته داخل طِشْت نُحاسيّ، أتت به أمي من بلدتنا، ووضعتُ الماء الساخن على جسده، فغضضتُ الطرف عن جسدة الهزيل وعورته، ولففتُ جسده بفُوطة صفراء اللون، ثم حملتُه إلى غُرفته، تركتُه يرتدي ملابسه الداخلية، وذهبتُ إلى الحمَّام، أحضر الطِّشْت، وما بقي من حوائج الاستحمام.

– "أحضرْ لنا طعامًا يا حارس": قالها سمير، وهو يواصل ارتداء ملابسه، بعد أن أجلسته على سريره، وقد شعرت بالجوع مثله، وأقسم عليَّ بأن نقتسم ثمن الطعام بيننا، طلب مني أن أبتاع علبة سجائر، جلسنا نرتشف من كوبَي الشاي اللذين أعددتهما لنا، ونعقبهما بسيجارتين، أسمع صوت طرقات خفيفة على الباب، تطل برأسها، بعد أن طلب منها سمير الدخول، فإذا بسامية تبتسم لنا، سمعتْ صوتنا من الخارج؛ فانتابتها حالة من القلق على سمير، فجاءت للاطمئنان، وذهبت سامية وعادت بطبق فاكهة، وظلَّت تُجالسنا، سألَنا سمير عن حالة عمّ عرفة الغريب، ولمْ يعرف كلانا أخبارًا عنه.

لمْ نجد ما نقوله إلا أن نتبادل النظرات والدعاء للرجل، تنهد سمير واعتدل في جلسته، اقتربت منه؛ لأرفع الوسادة خلف ظهره، الممتلئ بطفح جلدي شاهدته أثناء إرغائه بالصابون، حكى لنا عن طرائف

بعـض من السـرِّيحة، وما يحـدث بالمَمر كل صبـاح، لأن غُرفة الريس عبد الحكيم في مواجهة غُرفته؛ فإن كل شـيء يسـمعه، كأنه يشـاركهم جلوسهم، أو ينام وسط تلك الأجساد التي ترقد متجاورة، يسمع هذيان بعضهـم ليلًا وهو نائم بكلمة "بِكيَا"، التي يصيح بها في نهاره، يسـتيقظ كل صباح على صيـاح كبيرهم، وهو يوقظ أفراد جماعته، ويعيد عليهم الريـس عبد الحكيم النـداء مصحوبًا بالشـتم: "اصحوا يـا ولاد الـ...، يلعن أبوكم الشـمس قيَّلت"، بعد وصلة السُّـباب يستيقظ الجميع، كأن الشتم هو إنذار لاستيقاظهم، تبسم سمير يواصل حديثه:

ذات يومٍ استيقظ خميس ابن الريس عبد الحكيم، ثم انتعل فردة من حذائـه، وأخرى من حذاء والده، وبعد دقائـق كانوا جميعًا بنصف عين مفتوحة يغالبهم النوم، يبحثون عن فردة الريس الضائعة، معهم خميس، انتهت عملية البحث بضرب خميس على قفاه من والده، عندما اكتشفوا الحقيقة ضاحكين.

كما لم نكفّ أنا وسامية عن الضحك من حكايات سمير، الذي يجيد قصَّها، انتقل للحديث عن عمّ عرفة، عندما كانت مشـكلة المياه قائمة، يقـف بين الناس، ولا يشـاركهم الحديث، بل ظل يهـرش بخصيتَيْه، ثم ينتقل إلى منخاره بطرف السَّبَابَة للعبث بداخله. توقف سمير عن القول برهة، ولم نتوقف أنا وسـامية عن الضحك، ارتسـمَت على وجهه حالة من الجدية:

- أنا نِفسي أشرب حشيش.

صمتنا نتبادل النظرات، تعلو وجهَيْنا الدهشة، أعاد علينا أُمنيته، التأكيد بأنه لا يمزح، وشعوري أنني لو أعرف من أين يُجلب لاشتريتُه له، قرأتْ سامية في عينيَّ مشاعر الرأفة بهذا المسكين، أعرف أن بعض السرِّيحة يتناولون الحَشيش، لو طرقت على غُرفة خميس بن عبد الحكيم، الذي وجدته أكثر من مرة يحرق حشيشًا بالممر، لخشيتُ حماقته، لم أحتجْ لمحروس أكثر من الليلة، فظللت جالسًا مكاني، ذهبَتْ سامية إلى غُرفتها التي خلَت عليها، قالت: إنها سوف تعود بعد قليل، وظلَّ سمير شاخص البصر إلى سقف الحجرة، يحكي ذكريات عن والدته، كيف كانت تلبِّي له متطلباته كلها، يوم أن ذهبت إلى بائع الحلوى؛ لتشتري له حلوى البسبوسة بعد منتصف الليل، تنهَّد يدعو لها بالرحمة: من فَقَد أُمه فقدْ فقدَ قمة الفضائل، وهي المحبة.

فهززتُ رأسي؛ لعلمي بالترابط الذي كان بينهما، ترحمتُ على الأموات جميعًا، تدخل سامية بيدها قطعتين من الحشيش، في حجم نواة ثمار النخيل الصغيرة، مدت يدها لسمير بهما تداعبه:

- لو تطلب لبن العصفور.

دقائق مرت، والغُرفة كأن بداخلها شيئًا يحترق، وتبادَلت سامية مع سمير الأنفاس، وأمسك بالسيجارة من يدها؛ لأضعها بين شفتيَّ، وسمير شاخص البصر إلى فضاء الحجرة يُهَمْهِمُ:

ويا مَن لامني في حب من لم يره طرفي،

لقد أفرطتُ في وصفك لي في الحب بالضعفِ،

فقلْ هل تعرف الجنة يومًا بسوى الوصفِ.

كم كانت كلمات سمير التي تفوه بها، هي دلالة لمليون سؤال! ولمْ تردّ بخاطري تلك الأبيات، أعرف رقم الصفحة التي خُطت بها داخل كتابي "طوق الحمامة"، الكتاب الذي حرَّك -داخل صدر سمير- مشاعر الحب، قد وضحت على صفحات وجهه حالة من الاحتياج العاطفي، لكن هو على يقين بأنه لا يجد مَن ترضى به، "الحب بين الإعاقة والخوف"؛ كان عنوانًا كبيرًا يحتلُّ مساحة كبرى من عقلي، شعور مؤلم يا صديقي، تنهدت بها في صمت، مرَّت ليلتنا بين تبادُل السجائر، والكلمات، والضحك الهستيري، والشكوى، وقد ورد بخاطري سؤال:

- "مِن أين أتَت سامية بهذا المُخدِّر الذي تشربه، كأنها تعوَّدت عليه؟".

بعد دقائق سمعنا صوت استغاثة في غُرفة الريس عبد الحكيم، فصمتنا كأن على رؤوسنا الطير، يستغيث خميس من عقاب أبيه.

صوت الوالد: يا سافل، يا دُونْ.

تتدخل زوجته في الأمر:

- اخفض صوتك؛ حتى لا نُفضَح.

# (15)

مرَّت ليلتنا بسلام دون أن نُفضح، مثل خميس ابن الريس عبدالحكيم الذي وجده والده في الفجر يرقد بجوار شقيقته، لذلك صرخ فيه: أَلَمْ أُحذرك قبل ذلك ألا ترقد بجوارها؟

أشبعه ضربًا، حملنا خيالنا المريض من أثر الحشيش، همس الشيطان في أذن كل منَّا إلى أبعد من الرقاد بجوارها، كما أسرَّ لنا سمير بأنه يعرف كثيرًا عن هذا الأمر، فليس ما حدث الليلة هو الحادث الأول، تبادلنا نظرات الرَّيْب، بداخل سريرة كل منَّا ظنون كثيرة عن خميس، لكن ابتلعناها.

انتحر محروس كما أبلغونا، عندما استلمنا جثته مصحوبة بتقرير الطب الشرعي، الذي يؤكد انتحاره، أو مقتله بقسم الشرطة، النهاية واحدة، قد توقعتها كثيرًا، كما همس بها سمير عندما سحبته هواجس دخانه الأزرق ليلة سهرتنا معًا: سوف تسمع عن محروس خبرًا محزنًا عن قريب.

لمْ أهتم ليلتها لهذيانه الذي أصبح واقعًا، تراودني ظنون كثيرة منذ أن طلبت مني والدتي الخروج للبحث عنه؛ فأصابني الكسل، أشعر بالذنب أنني شريك في هذه الجريمة، بين ثبوت مقتله، ونفي انتحاره، لم نصل إلى نتيجة، إلا حقيقة واحدة مُسلَّم بها، جسد محروس يرقد

بجـوار رُفات جسـد والـده، لكـن الجثتين تركتا لـي جثة ثالثة تسـمع، وتُبصر، وتدمع، وتتألم في صمت، وأُمي المتشـحة بالسـواد منذ رحيل والدي قد أصبحت لا تبرح فراشـها، ظلَّت أيامًا مريضة أثناء فترة سجن محـروس قبـل موتـه، وحضـر الطبيب للكشـف، وقد بحـث كثيرًا عن وريـد؛ ليغرس فيه سـن حقنته، ظلَّـت أيامًا مُضرِبة عـن الطعام؛ فكانت تتغذى على المحاليل.

طـال جلوس سـامية بغرفتنـا، لإعطاء أمـي الحقنة والـدواء، بدأت أمارس أشـياء دون خجل، بل مُقبل عليها كأنها حق مكتسـب، والنقود التي أعدتُها لسـامية ذهبـت مرة ثانية، وطلبتها منها لشـدة احتياجي، لمْ أشـعر بالخوف من أي شـيء، بل النتائـج كلها عندي سـواء، اقترضتُ نفقـات دفن محروس، وأصبحتُ أزاحم السـرِّيحة في طلب الصدقات مـن المتصدقين، الذين يحضر بعضهم يوم الجمعة، أو في المناسـبات الدينيـة؛ حيـث تكثر الصدقات في شـهر رمضـان، ذلـك الكيس الذى منحنـي إيـاه الريس عبد الحكيم منـذ زمن، أعادتها له أمـي بالليل، فلمْ يأخذها، وقال هذا من فضل الله، اليوم أبحث عن هذا الفضل، وأنتظره، بـل أطالب بحقي فيه، بدأ يزداد ألم العيـن، حتى أُصيبت العين بضعف البصر، المسـجد هو ملاذي الوحيد فأذهب إليـه أوقات الضيق، وأفرغ ما يحمله صدري من أثقال بمسجد الرحمن، لمْ أجد الشيخين يتقدمان الصفـوف، بل صار الشـاب الأعـرج هو من اليـوم إمامًـا بالناس، وهو الحاكم بأمره، يشعل خِطابه اليوم الجماهير بالحماسة، ووقف يخطب:

"بعد الصلاة والسلام على النبي، أُعلن اليوم بأنه لم تعد لي علاقة بجماعة الأمر بالمعروف؛ لمواقفهم السلبية، فدائمًا يعلنون بأنهم ليس لهم علاقة بالسياسة، والسياسة يا إخوة هى الوسيلة التي سوف تصل بنا لتطبيق الشريعة الإسلامية، فمَن منكم يكره تطبيق شرع الله؟ إن الله يحب المؤمن القوي عن المؤمن الضعيف، ولو ظللنا على موقف جماعة الأمر بالمعروف، فمَن سيحرر القدس؟".

هنا تعالت الصيحات بالتكبير.

تزاحم المسجد بمريدي الشيخ الشاب، الذي بدأ يفرض ضرائب على بعض التجار، ويأمر النساء بارتداء الحجاب رُغم أنوفهنَّ، وهمَّ بتحطيم سيارة كانت تحمل خمرًا، ومنع إقامة بعض الأفراح، وحضور الراقصات فيها، تذكرتُ قول الأستاذ: محمد شاعر المدرسة، عندما توجهت بعض الجماعات في قريتنا، والقرى المحيطة بنا؛ لمحاولة منع إقامة الاحتفال بأحد الأضرحة، قال يُكمل حديثه عن الإسلام: إنه لم ينتشر بحد السيف أيام الجاهلية، فكيف يحدث هذا في جاهلية اليوم؟ نحن نعيش الجاهلية الثانية، والغاية الأسمى تحولت إلى وسيلة، فانصرفتُ عنهم، عُدت للسير وحيدًا بشوارع المدينة المزدحمة، أجوف الصدر أبحث عن الشعور بالراحة، وفضاء نفسي يتسع، لا حدود له، فحمدت الله؛ لانصرافي الذي جاء مبكرًا، فالليلة داهمت الشرطة مكان الرجل، وقلعته الحصينة التي بناها حوله من رجال وشباب يحملون السلاح، وظلَّت الناس تحكي عن ليلة المداهمة

قصصًا كثيرة، تبادلوا إطلاق النار والمطاردة في الشوارع، وجاءوا هاربين يتحصنون بمسجد ناصر، والشرطة خلفهم، ولم تتركهم، فهي مطاردة تُشبه حرب العصابات، وقُبض على الرجل ورجاله، ومَن مات فإلى الله حسابه، عدت إلى ضريح سيدي إسماعيل كالهِرَّة أتمسَّح في جدرانه، بأن يتوسط لي عند ربي، حتى ضاق صدري ذات ليلة من كثرة رجائي، شعرت بأن تلك الأشياء ما هي إلا أوهام ورثتُها عن والدي، كأوهامه بالمدينة الكبيرة.

لمْ أجد لي صديقًا إلا سمير، وسامية، التي بعد رحيل أُمَّها عنها، نلتقي كل ليلة تقريبًا، وإن غاب أيٌّ مِنَّا، سأل الآخر عنه، ولم يشغلني مَن زوج الأم، لكن أظن أنه يسكن بالقرب مِنا؛ لكثرة ذهاب المرأة، وإيابها؛ للاطمئنان على ابنتها، وراق لي موقف سامية برفض طلب أُمها، والذهاب معها للإقامة في بيت زوجها، فأُحببتُ ألَّا تذهب سامية بعيدًا عني.

أكثر من رائحة الصرف الصحي نفاذًا، قد انتشر خبر زواج أم سامية، ولاكَ الناس الخبر أكثر من لوْك الغنم لطعامها، بين غامز ولامز، تخرج سامية إلى العمل ليلًا في غير انتظام، ومن الممكن أن تعمل سبعة أيام متصلة، ويأتي أسبوع آخر، تظل داخل غُرفتها لا تبرحها، وخُطِبت لمدة شهرين، وتركها مثل مَن سبقه، لم أهتم لمواقيت عملها، وعندما تبصرني أحمل سمير إلى الحمَّام تقترب؛ لكي تساعدني، وقد حملتْ عن سمير بعضًا من ملابسه؛ لتغسلها، وهمست لي: أنتّ طَيِّب يا حارس.

لـمْ أهتم لمديحها، كمـا لم أهتم بالتغيُّر الذي طرأ على ناصر شـكر الله، يُشتهر هذا الرجل المُهذَّب بين الناس بالبخل، وقد ظهرت النعمة عليـه، فابتـاع عربتين كبيرتين لنقل حاجاته التـي كَثُرت بعد فرزها، وقد افتعل مع خميس مشـكلة، عندما اتهمه ناصر بأنه يعمل لحسابه، رآه قد طمـع في بعض الأشـياء، وابتاع مروحة، وتلفاز لحسـابه الخاص، وقد ابتعت من خميس حذاءً جلديًّا صناعة إيطالية، ومُسـتعمَلًا بحالة جيدة، ولم يكُنْ أمينًا مع الرجل على حد وصفه، وتدخل الريس عبد الحكيم، وأصلح بيـن الطرفين، لكنه أصرَّ على ألا يعمل معه بعد اليوم، وواصل إصـراره وتمـرده، فظلَّ بلا عمل، في ليلة تسـلل خميس إلـى غرفة عمّ عرفـة المهجـورة، الذي انتشـر خبـر موته، وحطـم القُفل علـى بابها، ؛ ليبحث عن أشـياء ذات قيمة لبَيعها، ولم يجد شـيئًا مـن بقايا عمّ عرفة، إلا حُطـام أشـياء لا تفيد، وحاول قلع الشِّـباك ذي القضبـان الحديدية، الذي يطلُّ على الشـارع لبيعه، لكنَّ والده تصـدى له بحَزم، وأبعده عن هـذه الخطـوة الحمقاء صوت الصـراع بين الرجل وابنـه، أيقظ كل من بالغرف، خرج خميس غاضبًا من الممر، يتفوه بالسُّباب واللعنات على هـذه الحال المُتردِّية، ظلَّت غرفة عمّ عرفة كما هي على حالها، وجلب لها الريس عبد الحكيم قُفلًا جديدًا يضعه على بابها.

قـد أصبح مشـهد والدتي عادة، الرقـود على الفـراش أعمال البيت كلهـا أقوم أنـا بها، وكان الطعـام وجبات جاهزة، أبتـاع بعض الأوقات لسامية، وأطلب منها أشياء؛ لتطهيها لنا، وتقدمها لأمي أثناء عملي، ولا يزال ظهري يواصل الانحناء، مثل: النخلة التي تطلُّ على دارنا بالقرية،

سـقطت فـي ليلة أمشـيرية، علـى الرغم مـن تحذيـر أُمِّي لأبـي وعمي بقطعها، ولمْ يسـتجبْ أبي، كما لم يسـتجب عندمـا طلبت منه الرجوع إلى القرية.

تسـعدني جلسـات سـمير جِـدًّا، وتمنحـه سـامية بعـض القِطَع من الحَشـيش، الذي أشـاركه حرقه، وتُشـاركنا هي أيضًا، ظلَّ سمير يَهذي طَـوال الليـل بذكريـات والدتـه، حتـى ضـاق صـدري مـن حكاياتـه، فانصرفت عنه بعد منتصف الليل، وتتبعني سـامية بالممر تقصد غرفتها في صمت.

اسـتيقظنا فـي صباح اليـوم التالي على تلك المشـكلة، التي صارت تُرهقنا كثيرًا، نحنُ سـكان الغُرف، مياه الصرف الصحي التي تمتلئ بها الغُـرف والممـر، تتدفـق من عين الحمـام، وتنزل على درجات السـلم المؤديـة إلى الممر، ثـم إلى الغرف تتهادى على درجات السُّـلم، وهي تُشـبه شَـلَّالًا ذا طوابق، اكتسـبنا مهارة التعامُل مع الموقف، ومهرجان نضْـح المياه المزدحم بالناس جميعًا إلا سـمير، ولم يَرُق لي أن أزعجه باكـرًا؛ فتركتُه للنـوم بعد ليلة أمسِ، التي كان فيها حزينًا يهذي بذكريات كثيـرة، وبعـد الانتهاء من عملية النضح والتسـليك، وجدنا سـمير ظُهر هذا اليوم مُلقًى على وجهه بغُرفته!

# الفَصْلُ الثَّالِث

كانت بهذه الغُرفة قصةٌ كبيرةٌ عميقةُ المعنى؛

لكنها لمْ تكتمل،

بل ساعدَتنا الطبيعة في إهالة التراب عليها.

# (1)

مرَّت أربعة أعوام على موت سمير، مات ولمْ يُحقق أُمنيته المفقودة بأن يشعر بالحُب، وكانت ليلة أمسِ احتفالية كبيرة أمام العمارة، التي نقطن في بدرومها بمناسبة تخرُّج طارق رأفت في كُليَة الشرطة، الاحتفال قائم على جسد أمي، التي تُوفيت منذ أشهر قليلة، تساءلتُ: لِمَ أقام رأفت مهرجانه هنا بيننا؟ كان من الممكن أن يقيمه في أيّ مكان آخر من النوادي، أو قاعات الاحتفالات بأحد الفنادق التي تزدحم بها المدينة على ضفاف النيل، حضرت ميرفت بصحبة زوجها ابن عضو مجلس الشعب، وكما وعد الرجل، فقد صار نائبًا، أتصفح وجه ميرفت، أقف بين الناس، وكلٌ شاخص البصر تجاهها، فهمستُ: إنَّ الجمال نعمة كبيرة.

تزاحم بعض الناس من الفقراء والشحاذين داخل السرادق؛ لتناول الطعام من الذبيحة التي ذُبِحت صباح اليوم، ولطَّخ الأستاذ: رأفت كَفَّيه بدمائها عند مدخل العمارة؛ لتبقى ذكرى الوليمة في عقول الناس، لكن هتف بهم الرجل بأن الطعام كثير، فلا داعي للتزاحُم، يشمر الريس عبد الحكيم عن ساعديه، يتولَّى أمر تنظيم الصفوف المتناحرة على قِطَع اللحم الموضوعة على أطباق الأرز، والأطباق المليئة بأطبخة من الأصناف المختلفة، رأيتُ زوجة عبد الحكيم تحمل صباح اليوم جلد الذبيحة المنسلخ إلى داخل الممر، ومن خلفها خميس يحمل أرجل الذبيحة الأربع، وبعد دقائق وقف خميس عند الصنبور يُنظِّف الأمعاء،

التـي وصلت رائحـة بُرازها إلى غُرفتنا، وملأت الممر، يقف السـرِّيحة على قدم وساق لخدمة الرجل.

بعـد دقائـق مـن مشـاهدة التزاحـم علـى الموائـد، قد حضر ياسـر المنـزلاوي بصحبة نرجـس وابنهما، وأصابتني رعشـة، أدقق النظر في نرجـس التي امتلأ جسـدها كمـا هي العَـادَةُ بعد زواجهنَّ، لمْ تشـغلني كثيرًا تلك الراقصة التي تقف على المسـرح، جسدها اللين الذي يتلوَّى كالأفعى، صعد ياسر إلى خشبة المسرح، ألقى عددًا من الفئات النقدية على جسدها، يمسك بمُكبِّر الصوت؛ ليُعلن بأن الليلة عيد لتخرُّج البك طـارق رأفـت من كلية الشـرطة، فضاق صـدري من رؤية ياسـر؛ لأنني شـعرتُ بأنني صفر على الشـمال، ليـس له قيمة في العملية الحسـابية، هذه هـي الحقيقة التي أنكرهـا، فقررتُ الانصراف، تراودنـي أُمنية بأن أصافـح نرجس، أتـرك الاحتفال قائمًا ولم تتحقـق أمنيتي بمصافحتها، أجرجر قدميَّ إلى غُرفتي، التي جعلتُ منها قبرًا ألحدُ فيه أحزاني كلها.

تتوسط سـامية النساء بفسـتانها الأنيق، تبارك لرأفت وأسرته، جعل السـرِّيحة من أنفسـهم أصحـاب الفرح، وقـد خلَت الغُـرف من الناس جميعًا، ولمْ يتبقَّ لِي إلا هؤلاء السـكان الجدد، الذين سـكنوا غُرفة عمّ عرفة، تعوَّدت تلك الغُرفة أن تكون منغلقة على نفسها، حتى مع السكان الجُدد: رجل، وزوجته، وطفلان، وعندما حضروا سمعتُ حوارهم كل ليلة، كثرة المشكلات بين الرجل وزوجته، يبدو أنهم تعوَّدوا على حياة الشـقق، والحـوار فيها بصوت مسـموع، لكـن للغُرف قانونًـا آخر، هو

الخوف على كل شيء؛ الصوت، والجسد، وكل شيء هنا محل تشهير، الزوجة ساخطة، والرجل قليل الحيلة بعد أن سقطت داره جراء الزلزال سنة ألف وتسعمائة واثنتين وتسعين، وقد مرَّ برحلة من التنقلات قبل أن يستقر به المقام هنا، وينتهي الحوار كل ليلة بصوت آهات اللذة، التي تُنسي المرأة مرارة العيش في الغُرفة نسيانًا مؤقتًا، مثل الحبوب المُسكِّنة للآلام، التي منحَتْها لي سامية عند شعوري بصداع آلمني كثيرًا، بعد ذلك ابتعته من الصيدلية؛ لتعوُّدي عليه.

لمْ يتبقَّ لي إلا مرارة ذكرى سمير، الذي عاش ومات وحيدًا بغُرفته، وجدناه مُلقًى على وجهه في المياه القذرة، كانت آخر ليلة أتناول فيها الحشيش، قد لفظ أنفاسه الأخيرة بعد الفجر، وكما أبلغنا الطبيب، وسلمنا جسده الطفولي لأخته التي أجادت دورها على مسرح الحزن، شقَّت ثوبها، ولطمَتْ خديها، ومنذ هذه الليلة أخاف الجلوس إلى سامية؛ لنحرق الحشيش؛ لأن رحيل سمير أصبح حائلًا بيننا للإقدام على هذه الخطوة، لكن الحزن سريع النمو مثل: شجر البزروميا الضارة، مثل: الصبار في العمر الطويل، حزنتُ كثيرًا على سمير، تركتُ لِحيتي عِدَّة أيام، واقتربَتْ مني سامية تطلب حلْقها؛ لأن الحزن على سمير بالقلب، وقد ترك سمير فراغًا كبيرًا في حياتي، أكثر من الفراغ الذي تركه أخي محروس بعد الرحيل، فارتميتُ في حِضن سامية أبكي مُهمهمًا:

– أشعر أن الدنيا تأخذ مني كل إنسان أُحبه، أصبحت كعامل المَشرحة؛ فكُلُّ يوم يودع جثة جديدة.

فربتَـتْ بيدهـا في رفق بعـد أن كفكفَـتْ دموعها: حقًّا هـذه الغُرف صارت تُشبه المشرحة.

أرادت أن تكفكفَ الحزن عني، فزفَّت لي خبرًا تظن أنه سيُسعدني، همسَـتْ سـامية لي: بـأن نرجس قد سـألتْها عني ليلة الاحتفـال بتخرُّج طارق رأفت، كما أخفَتْ عني سـؤال نرجس يـوم زفافها في الليلة التي تسـبق ليلة جلوسـنا معًا على دَرج السُّلم، ولن أنسـى ليلة القُبلة؛ لأنني تيقَّنـتُ من حُب سـامية لـي، هززتُ رأسـي، ولا أجد ما أجيـب به غير الصمت، أضافَت بملامح متجمـدة، كأنها مغصوبة على الاعتراف بأن نرجس لا تزال تحبني:

– عندما قصصتُ عليها حكاية أخيك محروس، وأُمُّك المُتوفَّاة فقد رأيتُ في عينيها مشاعر من الحُب، ودمعة مُتحجرة.

أجزُّ على أسناني بغيظٍ شديد، أُقدِّم الرثاء لنفسي: هذا ليس حبًّا، بل هي مشاعر الشفقة.

هزت رأسـها ترفض كلماتي الانهزامية، وأمسـكتْ بقطعة حشـيش أخرجَتها من تحت وسادتها، تضعها داخل ورقة، وتشير أن آذن لها بحرقها؛ لأننـي قبل ذلك رفضت الجلوس معهـا، لنحرق المخدرات بعد رحيل سـمير، هززتُ رأسي بالموافقة، فتبسَّـمتُ، تنظر إلى وجهي المُحتقن:

– بل حُب...؛ فالمرأة هي الأكثر معرفة بمشاعر المرأة.

أحببت تغيير مجرى الحديث عن نرجس، ولا أحب مشـاركة سامية

الحديث عنها، على الرغم من كلماتها التي أسعدتني من الداخل، ووردَ بخاطري سؤال يلحُّ عليَّ كثيرًا: مِن أين لكِ بهذا الحشيش؟

دخل نَفَس عميق إلى صدرها من مقدمة سيجارتها، جعل النار تتوهج مثل نار سيرة نرجس التي توهجت بداخلي، تتفحص وجهي، ولمْ تجب عن تساؤلي، بعد صمت دام لهُنيهة، فتزدرد ريقها الجاف مع دخان سيجارتها التي مدت بها يدها لي، ظللنا نتبادلها حتى النهاية، كأنها تبحث عن جواب باصطناع بعض الحركات قبل الإجابة، مثل: السُعال، أو الحكّ بيمينها في جلد رأسها، شاحت بوجهها؛ حتى لا أرى قسمات وجهها، تهمس:

– لي زميلة بالمستشفى يتاجر زوجها فيه، فهي تبيع لي بسعر رخيص، وأحيانًا تجلبه هدية نظير خدماتي لها.

ابتلعتُ كلمات سامية عن مصدرها، دون أن أُفتش في مصداقية الأمر، أشعر بأن أرجل الأخطبوط التي ملأت فضاء غُرفة سامية تسحبني إلى هاوية من الفشل والاستسلام، وأرتشف أنفاسًا وأتمنى أن ينزاح المقعد الخشبي الذي وضعَته أمام باب غُرفتها؛ حتى تضمن بأن يظل مفتوحًا إلا من قطعة القماش البالية، التي تحجب الرؤية عن أي شخص يمر بالممر يقصد الحمَّام، نسمع نادرًا صوت طرق نِعال، ملأ الدخان فضاء الحجرة في تلك الليلة، أتمنى أن أقترب من سامية.

حالة من الخواطر الجنسية تمر بخاطري أثناء خلوتي بها، أتصفح خريطة وجهها أثناء حكايتها عن والدها، الذي لم يأتِ الخبر عنه، حتى

فقـدوا الأمل في عودته، غيابـه الذي تجاوز الثلاثة عشـر عامًا، أعادت علـيَّ ذكرياتها مرة، بل مرات، وحفظهـا لعدد من أجزاء القرآن الكريم، لكـن مع كثـرة الهموم تناسـت ما حفظـت، ورحلت أمنيتهـا مع رحيل والدهـا، لكـن بقيت ذكـرى جميلة تشـتاق إليها في أوقات الانكسـار. يعلن صوت التلفاز عن موجز أخبار منتصف الليل، أكد الرئيس حسني مبـارك أن مصر لن تقبل أيّ مادة من مواد المشـروع، الذي سـيُقدم إلى مؤتمر السـكان العالمي بالقاهرة، تتعارض مع الشـرائع السماوية، ومع قِيَم الأسرة، أنظر إلى عينيها اللتين تلمعان مع ضوء التلفاز، أمازحها:

– صحيح، سيبيح المؤتمر علاقة الرجل بالرجل في إطار القانون؟

ضحكت سامية بخبث، تعلم المغزى من السؤال:

– شائعات سمعت عنها بالعمل، أو في وسائل المواصلات.

وأحببـت أن يأخذنـا الـكلام عـن الجِنـس، يبـدو أن سـيرة نرجس تجعلني في حالة من عدم الاتزان، أداعبها بشيء من السخافة:

– لـو صدق الأمـر لتزوجـتُ أنا بخميس بـن الريس عبـد الحكيم، وأنتِ تتزوجين بأخته.

ضحـكات صاخبـة مني عقب اسـتظرافي غير المقبـول لها، تغيرت معالـم وجهها، ونهرتني بعصبية مفرطة، تحولت سامية إلى كتلة غضب سوداء بوجه مكفهر مشيرة بالسبابة:

– اخرُج بره يا حارس.

# (2)

بـدأت صورة عمّ عرفة الغريب، أو شـبحه تطاردني في آخر ليلتين، يخالـط حضـوره جواثيـم رُقادي بقـوة، ويشـارك أحلام غُرفـة الكتب السـوداء، التـي أواصل السـقوط بيـن جدرانهـا، وأتقلب علـى مرتبتي ووسـادتي القذرة، التي منذ رحيل أمي لم أغسـل كسـوتها، الجو حار؛ فشـهر يوليـو على الأبواب، اسـتيقظتُ منـذُ أيام، شـعرت بأنني فقدتُ البصـر، ولـمْ أرَ صندوقي؛ لكي أحملـه، لأبحث عن لُقمة العيش، اليوم موعد الذهاب إلى البنك، لتلميع أحذية البكوات، عاودتني حالة فقدان البصـر، وجلسـتُ على سـريري بعض الوقـت، أفـرُك براحتـيَّ عينَيَّ، أبحـث عن السـائل الخاص بهما، أضـع قطرات منه داخـل الحدقتين، ظللتُ جالسًا بعض الوقت؛ حتى عاد لِي توازني.

اسـتهواني الذهـاب ليلًا إلى منطقـة "الكيت كَات"، ومنهـا إلى نهر النيـل؛ لوجود بعض مـن المقاهي على ضفاف النهـر، التي تعمل لمدة أربع وعشـرين ساعة، تزدحم ليلًا، حتى ساعات الفجر، أَمُرُّ على بعض الجالسـين، أعرض عليهم مَسـح أحذيتهم، كان الـرزق جيدًا، ووفَّر لي سُـبلًا للعيش أفضل من ذي قبل، لـمْ يشـاركني أحد رِزقي، أصبحتُ لا أطيق الخروج في النهار؛ فتُؤلم أشعة الشمس عينيَّ، فاكتفيت بالخروج في سـاعة المغيب، والنصف الأول من الليل، كما حذرني الطبيب: أن

أبتعد عن أشعة الشمس المباشرة؛ خوفًا من العواقب الوخيمة.

انتهيت من المرور بعدد من المقاهي، وجذبتني نسمة الصيف التي تُرطب جسدي، ولا أستطيع الدخول إلى الغُرف باكرًا، أُفضِّل السير بالشوارع، فتعودتُ هذه الأيام النوم بالسروال الداخلي فقط، وأحيانًا بدونه، أشعر بالمُتعة الحقيقية عندما أكون موجودًا داخل غُرفتي بدون ملابس، عودة الإنسان إلى أصله هي متعة لمْ أشعر بها إلا بعد رحيل أُسرتي، على الرغم من أنها تحمُّل (لَسعات الناموس) على جسدي؛ فإنها أفضل من الجو الحار الذي يفقدني القدرة على النوم مبكرًا، فضلًا إلى رائحة البول (المُتكلِس) التى تهبُّ عليَّ مِن الحمَّام، وصارت الغُرف تحمل الرائحة نفسها.

وصلتُ إلى ناصية مسرح البالون، وصار صندوقي جزءًا من جسدي، جلستُ على الرصيف؛ لأستريح، ترقب عيناي سامية تركب سيارة (ملَّاكي) حمراء، تزجُّ بجسدها في المقعد الأمامي بجوار السائق، الذي ينطلق بها، أقف بين التصديق من عدمه، ولا أزال ألقي باللوم على عينيَّ، اللتين ضعف بصرهما، حتى مع استمرار وضع القطرات كل ليلة بالحدقتين!

أتمنى أن تكون نهايتي سعيدة مثل: أُم طارق، سِرتُ خلف النعش بين التصديق من عدمه، يضرب زوجها خلف النعش كَفًّا بكَفٍ، يذرف الدمع، وحكت ميرفت لسامية ما كان من أُمها وأبيها، وكلمات كثيرة يتغامز بها المتغامزون، بأن النائب سيقيم حفلًا كبيرًا، طلب من الأستاذ

رأفت على لسان ابنه زوج ميرفت، بأن يُلبِّي حَموه الدعوة، ومعه زوجته أُم ميرفت، فرفضَتْ الزوجة الذهاب، بدأ الزوج بالضغط عليها بالوسائل كلها، يُقدم كلمات الترغيب، بأنها سوف تُوقِّع على عقود قطعتَيْ أرض في المدن الجديدة، واحدة بالمنطقة الصناعية سوف يُنشِئ رأفت بها شركةً كبرى؛ لتعبئة المواد الغذائية، وأخرى بالمساكن سوف يبني بها دارًا لهم في المستقبل، تعلم ميرفت سر القصة القديمة ليل خِطبتها.

أُقيم ليلًا حفل خطبة ميرفت في إحدى القاعات في فندق كبير بشارع الهرم، عندما رجعوا جميعًا، ووثب كلٌ منهم يقصد غُرفته للنوم، إلا ميرفت التي جلست تتدبر في صالة الشقة، كيف مرت ليلة خِطبتها؟ قد نشب شِجار داخل غُرفة والدَيْها، وارتفع صوت أُمها في وجه أبيها، عندما قدَّم النائب البرلماني ليلة خطبتها الهدية التي أثارت مشكلة، خاتمًا غالي الثمن لأُمها دون علم والدها، فرفضَت، وانصرفَت بصحبة طارق باكية قبل أن ينتهي حفل الخِطبة.

عندما يحل الغضب يتساوى مَن يسكن تحت الأرض وفوقها، يقول رأفت لزوجته بأن تكون حسنة النية، فتصرخ به، هناك أشياء تفوَّه بها الرجل، لا تستطيع أن تقولها، وعلى الرغم من هذه الكلمات المصحوبة برجاء المرأة، ودموعها؛ فإنها لم تُثنِه عن تلبية دعوة الرجل الثانية؛ لأن الفرصة عظيمة.

وارتدى الرجل ليلة الحفل بذلته الأنيقة، وطلب من زوجته بأن ترتدي الفستان الجديد الذي ابتاعه لها بمناسبة الحفل، فرفضَت،

ورضخ الرجل على مَضض بأن يترك لها حرية ما ترتدي؛ ليضمن توقيعها على ملكية الأرض، ولوَّح بالتهديد بأنه سوف يُطلِّقها إن لم تذهب معه؛ وسيضر عدم ذهابها بمصلحتهم جميعًا، واتهمها بأنها لا تُحب الخير للأسرة، وبصوت منكسر طلبت منه عدم التمادي في كيل التُّهم.

فارتدَت لِباسها، وسمعت صوت النداء للصلاة، كان أذان العِشاء، فأصرَّت قبل الانصراف بأن تُصلي الفرض على غير رغبة من الزوج، ففاضت روحها أثناء أداء الصلاة المكتوبة، صرخت ميرفت صرخة أقلَق دويَّها سُكان العمارة والغُرف، وتناقلت الناس هذه الحادثة، وحمل رأفت أمتعته، ورحل بصحبة ابنته ميرفت التي انفصلت عن زوجها، وطارق قد نقله النائب بعيدًا عن القاهرة؛ عقابًا له بعد أن اعترض على طلاق أخته من زوجها، وتناقل الناس سيرة النائب البرلماني، فحدث شرخ في العلاقة، فضحَّى الزوج بميرفت؛ حفاظًا على سُمعة أبيه، ولمْ أنسَ وجه ميرفت العبوس لحظة الرحيل عن المكان خلف أثاث البيت، أثناء نقله على سيارة نقل كبيرة، نظرة تودع بها ذكريات السنين، وتُذكرني بمحروس قبل مقتله داخل سجنه، وانتهت حياة الأستاذ رأفت وأسرته من المنطقة.

# (3)

داهمت الشرطة غُرف السرِّيحة، خصوصًا غُرفة الريس عبد الحكيم؛ للبحث عن خميس الذي عرفنا بعدها أنه أصبح يتاجر في المخدرات، أسمع صوت الضابط يواصل سُبابه لسكان الغُرف، بأنهم وباء أصاب مساكن عزيز عزت، بل حي إمبابة، وفرَّ خميس من الكَمين الذى أعدته له الشرطة؛ حيث كانت ترصد تحركاته، مرَّ يومان على حادث مداهمة الغُرف، حمل السرِّيحة حوائجَهم للذهاب لبلدتهم، بعد أن ابتاع بعضهم قطعة أرض في بلدته، وذهب آخر لشراء سيارة أُجرة، وكلٌ منهم عمل مشروعًا خاصًا به، تشدقوا بهذه الأشياء كنُوع من المزاح والمفاخرة، أعلنها الريس عبد الحكيم للملأ بأن الرجل يحترم شيبته، وقد تجاوز عامه الستين منذ أشهر قليلة، ولا يحتمل (بَهْدلة) رجال الشرطة له، وسوف يقضي ما بقي له من أيام في بلدته بعد أن قُبِضَ عليه، للضغط على خميس، ليُسلِّم نفسه، نجحت حيلة الشرطة، وخرج الريس عبد الحكيم، وشعر بعد رحيل رأفت أنه أصبح بلا ظهر يحميه، ويحمي أهله، فقرر الرحيل، ولم يصمد مَن بقوا من السرِّيحة كثيرًا، فغادر جميعهم خلف الرجل كأسراب الطيور المهاجرة يتعاقبون، أو على حد وصف سمير مبروك لهم قبل رحيله، بأن الغُرف تُمثل للسرِّيحة أرضًا لا يطير غُرابها، يبدو أن أرض الغربان صارت جدباء، أو امتلأت بطونهم، فغادروا.

كما غادرت أمل زوجة الساكن الجديد، التي أخبرتني باسمها سامية، واسم زوجها محمود، ولا تزال تواصل نقمتها على العيش داخل الغُرف، المُسكنات كلها التي استعملها زوجها، لمْ تؤتِ ثمارها، فقررت الرحيل، تركت الصغيرين، ورحلت إلى بيت والدها منذ أسبوع، لكنني سمعتُ ليلة أمسِ صوت همسات، يبدو لي من كثرة همس آخر الليل، تخيلتُ بعض الأشياء، فاللعنة على الفراغ الكبير، الذي يملؤه عقلي الباطن بخيالات، واليوم لم يخجلني ما أسترق من السمع أو البصر للغُرف المجاورة، بل في بعض الأوقات أشعر بالمتعة، ولمحتها صباح اليوم التالي بطرف عيني، ترتدي قميص نومها القُطني أبيض اللون من خلف ستارة بابها، وهي مُنهمكة في القيام ببعض الأعمال، تيقنت أن همسات ليلة أمس كانت حقيقية، ولم يعُد محمود الساكن الجديد، كما تعوَّدوا جميعًا الإشارة إليه، ولمْ يجمعني به مجلس إلا السلام، إن التقينا أثناء الخروج، أو الدخول بالممر، أجده دومًا عاقدًا الجبين مهمومًا.

لمْ نجرب القطيعة أنا وسامية منذُ أن تعوَّدنا الجلوس معًا كل ليلة، إن غاب أيٌّ مِنَّا عن الآخر كان يخبره من قبلها؛ حتى لا ينتظره، وقصدتُ الاختفاء عنها ثلاث ليالٍ متصلة، منذ ليلة أن أبصرتها عند مسرح البالون تركب تلك السيارة الحمراء، قررتُ أن أجعل الشك يقينًا، بأن سامية ترتاد السيارات الخاصة ليلًا، يراودني شعوري القديم دائمًا، البحث عن حقيقة الأشياء، وتحليل الماس هو متعة مهما تكُن النتائج، خرجتُ خلفها ذات ليلة من الليالي؛ أراقبها، لكن لضعف

البصر اللعين فقدتُها بين زحام الشوارع، فظل هاجس رأسي يطاردني بين حين وآخر، فماذا تعمل سامية؟ كانت تعطي أمي الحُقنة بحِرَفية تامة، وتستريح لخفة يدها أكثر من طبيب ماهر، وكما كانت تُعطي لصغار السرّيحة بعض الحُقن والمسكنات، وعندما يزداد بكاء أحدهم في جوف الليل، الوسيلة الأسرع هي الطرق على باب غُرفة سامية؛ لتمُدُّ يد العون لأطفال السرِّيحة، على الرغم من كثرة شجارهم مع أُمها، تسعد بمزاح النسوة لها بأنها الدكتورة سامية.

في الليلة التالية بعد أن فقدتها في أثناء مُراقبتها، وجدتها تقف بباب غُرفتي، وتسأل عني، أَقْلَقها سِر غيابي دون أن أُبلغها، فأحتالُ بأنني أعمل ليلًا، وعندما أعود لا أحب أن أُقلق راحتها، فتنظر إلى عينيَّ مبتسمة: هل ما زلت غاضبًا منذ ليلة أن طردتك من غرفتي؟

فأشيح عنها، أداري مشهد السيارة الحمراء من مخيلتي، تعلم أنني أخفي شيئًا، بفتور لم تتعوده مني بأنني لستُ غاضبًا منها، بل أشكرها؛ لأنها تحملتْ قلة أدبي وسخافتي، أُكمل ما بقي من حُججي غير المُقنعة، وأعود فأجد غُرفتكِ مظلمة، أعلم أنكِ بالعمل، أو نائمة.

يشبه الممر أنبوبًا أجوف هواؤه ملوث، أشعر كأنني دودة الأرض تواصل الزحف، للبحث عن أشياء تمنحها مواصلة الحياة، ثلاث غُرف فقط التي يوجد بها سُكان، بعد رحيل السرِّيحة المفاجئ، الأبواب المقفلة تثير القلق في داخلي، امتنعتُ أو توقفتُ عن مراقبة سامية بعد ليلة فُقدانها، أهمس لنفسي:

- حتى لو عرفت الحقيقة، فسوف يزداد صدري ضيقًا.

يقطع خلوتي صوت صراخ استغاثة، فقد نشب شِجار تعالت فيه الصيحات، خرجَت المرأة إلى الممر ترتدي القميص ذاته الذي رأيتُها صباح اليوم ترتديه، تستغيث من بطش زوجها، خرجتُ من غُرفتي، وسامية من غُرفتها، على ما يحدث في الممر، وصوت محمود:

- ستفضحينني يا بنت الكلب.

يركل مؤخرتها دون رحمة، ويجرها من شعرها على البلاط المتأكل الحواف باهت الألوان، إلى داخل الغرفة، يصرخ الطفلان بفزعٍ شديد، ينكمشان؛ خائفيْن مما يحدث، فاقتربتُ من الرجل مهرولًا؛ أحول بينه وبين زوجته، دفعته بما تملك يدي من قوة، فسقط الرجل على الأرض، وسامية تساعد الزوجة على الوقوف، تمسك بها من مِعصمها، تساعدها لدخول الغُرفة، ومن بعد أن رأَت الدماء تسيل على ركبتيها اللتين كُشفتا، أجلستُ الرجل بغُرفتي، طلبت منه الهدوء، لم ينقطع صوت النهيج لأنفاسه المتتابعة، همس بصوت متقطع:

- ماذا أفعل لها؟ أعمل لصًّا؛ لكي نجد بديلًا لغُرفتنا اللعينة!

# (4)

لـمْ أدرِ بـأن الصُّلـح بيـن طرفيـن متخاصمَيْـن مُهمَّة شـاقة، يوم أن تمردتْ زوجة عمّ عرفة الغريب، ولمْ يخرج تمردها عتبة باب حجرتها؛ لأن الرجل ذو بأس شديد معها، صوت تحطيم الزجاج ليلتها كفيل بأن يُنهـي أي تمرد، لا أدري أَكَان على جسـدها، أم على الأرض، فجلسـنا الليلـة إلـى الفجـر بين تناحُـر الزوجين، وبـكاء طفليهمـا، الانتقال بين غُرفتي، ومنها إلى غُرفة سامية، ثم اللقاء الأخير داخل غُرفة محمود.

جمعنـا بين الزوجين فـي غُرفتهما، لكنه صُلح علـى مَضض، وقبَّل محمود رأس زوجته قُبلة مُغصَبة، فتبسَّـمَت هي ابتسـامة مُنكسرة، لكن فـي نهاية الأمـر رضخ الاثنـان، بـأن يبْقيا على أطـلال بيتهمـا، وانتهى مؤتمـر الصُّلح ببعض المداعبات، التي لم تُلاقِ أيَّ قبول من الزوجين، ولا يزالان على غضبهما، تتجه سـامية إلـى غُرفتها في صمت، دون أن تلتفـت نحـوي عندمـا خرجت خلفها مباشـرة، يبدو أن ثـوب أحلامها الذي نسـجته لي، لكي نتدثر معًا بـه مزقتُه لعدم اهتمامي، ولم تعد تأتِي أُمهـا إلا يوم الجمعة فقط من بيت زوجها؛ للاطمئنان عليها، وأحيانًا لا تأتي إلا مرة واحدة في الشـهر، آخر مرة رأيتها فيها ظلَّت تمازحني، بأن هذه الغُرف سـوف نظل أنا وسـامية بهـا، مثل: قِرْدَيـن وَجْهَينا في وجه بعضنا.

انقطع الخبر عن أُم أحمد بائعة البيض، بعد أن تزوج زوجها بأخرى، وانقطاعها جعلني لا أذهب للسوق كثيرًا، وقد أخذتْ سيدة أخرى تبيع الجُبن القَريش مكانها، أظن أنه حدث مكروه للمرأة، أبلغتني بائعة الجُبن بعدم حضورها مُطلقًا بعد اليوم، ولم يجدِ إلحاحي عليها لمعرفة السر الذي احتفظتْ به لنفسها، تحدثَت المرأة بشيءٍ من الحسرة عن أُم أحمد "المسكينة خلاص ضاعت"، ثُم تحول إلحاحي إلى رجاء، ولمْ يشفع رجائي أن تبلغني بحقيقة الأمر، وطلبت منها أن تصطحبني لزيارتها، لكنها رفضَت، وشاحت بوجه عبوس، فشِحتُ عنها منصرفًا إلى مُرسي بائع الجرائد، الذي بني كُشك له قبل نفق المُنيرة، ولمْ يطُل جلوسي عنده أيضًا؛ لأنني لم أستطع القراءة، واسترحتُ من حذائه -الذي يزكم أَنفي- فضلا عن عدم قدرتي على ممارسة، فصافحني بحرارة السمَّاك، الذي زاد بشر وجهه، يسألني أيضًا عن سِر انقطاعي عن المكان، فاكتفيتُ في هذا الصيف الحار بأن أجوب شوارع المدينة ليلًا، ولمْ أخرج إلا ساعة وحيدة في الضحى، أسير في ظِل جدران البيوت نحو البنك؛ لكي أُلمِّع أحذية البكوات، فجواربهم أنظف من ثياب مُرسي، فغضبوا مني؛ لانقطاعي عنهم في تلك الأوقات العصيبة التي مرت بي، لكنني عُدت؛ لأُؤكِد لهم بأنني سوف ألتزم بزيارتي لهم، فغفروا لي غيابي، وأنا لم أغفر لسامية ركوبها ليلًا سيارة خاصة، وإن لم أكن مُتيقنًا من الأمر، لكن هناك هاجسًا يطلب مني، أن أتيقن حقيقة عملها، فلمْ أُعِر هاجسي اهتمامًا.

أيام القطيعة شبه مستمرة بيني وبين سامية، التي هجرت الغُرف، وبدأت تنام عند أُمها في ليالٍ كثيرة، بعد أن تعقبها أثناء عودتها ليلًا شابَّان، حتى الآن لا أعلم ماذا يريدان منها، لصَّان، أم مُغتصبان؟ وعندما اقتربا منها داخل الممر المُظلم ليلًا، صرختْ بأعلى صوتها، ففر الشابَّان، حضرت أمها ومعها زوجها، وحملاها داخل سيارة أُجرة إلى شقة الزوج، وهي تبكي بشدة، مثل بكائها يوم أن سبَّها محروس.

خلَت عليَّ الغُرف، إلا من محمود وزوجته، اللذَيْن صار الصمت المُخيف حالهما، ومرَّت أيام كثيرة وبابهما مُغلق دائمًا، ولم يتشاجرا معًا، لكن التعامل بالعنف مع الصغيرين بالتبادل بينهما منذ يومين، فضرب محمود ابنه الأكبر، وليلة أمسِ سمعت بكاء الطفل الثاني، وقد حذَّرته أُمه بألا يفعل هذا الشيء مرة أخرى، وأكثرتُ من الجلوس على عتبة باب غُرفة العفاريت، ولمْ أخف من تلك الأشياء خلف الأبواب، على الرغم من كثرة سماع (الخَشْخشة) لهدوء الممر، ورغبتي القديمة باقتحامها لا تزال تراودني، أتنقل بينها وبين عتبات الغُرف الأخرى كلها، التي صارت مغلقة أيضًا، أسترجع شريطًا طويلًا من الذكريات، وحملت الرياح اليوم أشياء كثيرة من بقايا الشارع إلى الممر، فتراكمَت فوق بعضها، وأسمع صوت حفيفها عن طريق السكون المُخيف.

وأجلس وحيدًا أتخيل صورة نرجس تحتضن كتابها، ولعب (استغمَّاية) مع محروس داخل الممر، وأخشى عقاب أمي إن أقلقناها ساعة القيلولة، التي تحافظ على الرقاد فيها، كأنها جرعة دواء منذ أن

كنـا بالبلـدة، واحتفظتُ بتلك العادة حتى بعد رحيلنـا إلى المدينة، ومرَّ الصبا أمامي بكثير من الحكايات الجميلة، ولمْ تكُن بريئة.

"من الحُب ما قتل".

صـوت صرخـة جعلنـي صداها أسـقط من السـرير مرتجفًـا، فقتل محمـود أمـل زوجته دون قصد منه، بعد نشـوب شِـجار كبير تريد على إثـره تـرك الغُرفة، فهددها بالسـكين، وأقسـم عليهـا إن خرجت خارج الغُرفة؛ فسـوف يغرس سـكينه بجسـدها، فولَّت منصرفـة إلى الخارج، ولـم تبالِ ببكاء طفليها، تتوعده بأنها لن تعـود لهذه المقابر مرة أخرى، وقد برَّ الرجل بقسمه، بعد إصرارها على الرحيل، تذكرتُ قولهُ لي ليلة الصُّلـح بأنـه يُحبها جدًّا، فكان زواجهما نِتاج قصـة حُب طويلة، وكلما رحلتْ عنه شـعر بالضيق الشـديد، يتألم لفراقها، لكنه لا يسـتطيع أثناء الفتـرة الأخيـرة كَبح لِجـام عصبيته المفرطـة في دقائق معـدودة، وكأن النـاس جميعًا متربصون، امتلأ الممر برجال الشـرطة، ومعهم المحقق يعاين مسرح الجريمة، وجمهور عريض يضرب كفًّا بكف لهذا المشهد الدمـوي، أثنـاء القبض عليه سـمعت صوت بكائه، ويشـاركه الطفلان عزف مقطوعة حزينة بأنه كان يهددها فقط، ولمْ تكن لديه النية المُسبقة لقتلها، فتعلمتُ من حادث أخي محروس بأن القانون لا يحمي الفقراء، وأيضًا لا يحكم بالنّيات.

# (5)

أظلمت غُرفة محمود مثل بقية الغُرف، ولا أعلم عن مصير الطفلين شيئًا، ولن يكونا أفضل حَظًّا من حارس ومحروس؛ لأننا جميعًا دخلنا المدينة الكبرى من الأبواب الخلفية، أعود ليلًا فلا أجد إلا كلابًا ضالة داخل الممر، تتشاجر معها قِطط الشوارع، يبول بعضٌ من المارة داخله، وتحول الممر إلى مكان للقمامة، مرَّت شهور كثيرة، أشعر أنني أحتضر ببطءٍ شديد، أحبو نحو كل شيء إلا ضعف البصر، وأنا مُنطلق إليه بأربع، لأول مرة في حياتي أمتلك حَمامًا، وأدخله وقتما أريد، وأمسيت أتحسس جدران الممر، عندما أقصد الحمَّام ليلًا، فلا أجد إلا صوت أشباح تطاردني بأصوات خَشخشة خلف الأبواب المغلقة، أشعر بصوت زوجة محمود القتيلة، تمرُّ بجواري، وبجسدها السكين، أرتجف، فأذهب إلى غرفتي، وأغلق بابها عليَّ، أُتمتم ببعض آيات من كتاب الله، ولم أعد أُفرق بين ألوان الأحذية الأسود، أم البُنيّ، وقد تركتُ الصندوق تحت السرير، مثل: صندوق عمّ عرفة.

منذ هذه الحادثة التي تؤلمني كلما تذكرتها، فوقعَت معي على أحد المقاهي، أعطاني زبون زوجًا من الأحذية السوداء، فصبغتُهما باللون البُنيّ، اختلط عليَّ الأمر لوجود مصباح باللون الأحمر أمام المقهى، فتشاجر معي الرجل يتهمني بأنني أعمى، ذهبتُ ليلتها إلى غرفتي أَجرُّ قدميَّ المثقلتين، يملأ الخوف من غدٍ حواسي كلها، أشعر بأن الدنيا

خلَت عليَّ، بعد أن ذهبوا جميعًا، بعضهم قد ذهبوا إلى رحلتهم الأبدية، وبعضهم الآخر اختار الهروب.

غدًا أول ليلة في الاحتفالية السنوية لسيدي إسماعيل الإمبابي، شعرتُ بالضجر بعد انقطاعي عن العمل، وجلوسي المتنقل بين الممر والغُرف، لملمتُ بقايا هِمَّتي المتناثرة عن طريق سكون الغُرف، نويتُ الذهاب إلى المولد؛ فسوف أُعدُّ هناك جوارحي كلها للتعبُّد حول الضريح، أدعو الله بأن يُعيد بصري، أو يقبض روحي، والحالتان عندي سواء.

مرت الليلة الأولى بالمولد، أنام في تلك الخيام، وأتحسس أحد أعوادها الذي يهتز عندما يتدافع الناس خارج الخيمة، وعندما سكن الليل يواصل اهتزازه أثر رياح الغسق، أمرر سَبَّابتي على تلك الأطناب غير المشدودة؛ لأطمئن لرقادي، وأخلد إلى النوم بجوار أناس لا أعرفهم، رائحة عرق بعضهم تُزكم أَنفي، مثل: جورب مُرسي بائع الجرائد، ولمْ أفكر كثيرًا كالعادة قبل النوم، بل خمس عشرة ساعة التي استيقظتها كافية، بأن أذهب في سبات عميق، عندما أَنِس جسدي للمكان، استيقظ على أصوات تطلب مني أداء صلاة الفجر، أنتظر بعض الأطعمة التي يمنحها المتصدقون علينا، أجلس بجوار بائعة الشاي أمام السنترال على الرصيف، فتمنحني بين حين وآخر كوبًا من الشاي، أو سيجارة من عِلبتها، فمددتُ يدي؛ لكي أتناول منها تلك السيجارة، التي لم تكن الأُولى، فيما يبدو لن تكون الأخيرة، تُوضع فئة نقدية بيدي، فسحبتُ يدي فأجدها فارغة، ببطءٍ أشعر بقشعريرة تجتاح

جسدي، صوت لرجل طلب منذ برهة من بائعة الشاي أن تضع له ملعقة سُكَّر داخل كوبه، يسألني عن سِر رفضي نقوده، تلكزني بائعة الشاي بيدها، بأنَّ هذا رزق إن رفضته فإنني أفتري على النعمة، ثُم ترفع صوتها مُشيرة إلى المقام والمسجد.

"شي لله يا سيدي إسماعين يا إمبابي".

أكاد أشعر بالغثيان، أقبض على النقود، وأنظر عن طريق آذني لِما يحدث حولي، من زحام شديد بين المُحتفلين، تقوم الطُّرق الصوفية بالذِّكْر، يواصل مدَّاح المولد إنشاده في سيرة أهل البيت والرسول الكريم، يتفنن في المديح، يتقافز صوت الأطفال على الأُرجوحة بجواري، بكاء أحدهم لسقوطه، أتذكر أول احتفالية أحضرني فيها والدي إلى المولد، أسقطني محروس من على الأُرْجوحة بفعل فاعل؛ لأنه يمازحني، فسالَت الدماء من رأسي، كفكف والدي دموعي بشاله الأبيض، وهرب محروس ليلتها، وظل والدي يبحث عنه، حتى وجده عند موقف السيارات.

جلستُ بجوار بائعة الشاي، تُسمعني المرأة كلمات الشفقة على حالي الجديد، أتلقَّى الصدقات بعد أن حفزتني على ذلك؛ لأنني صرتُ أستحق الصدقة، وصوت مألوف لي، لكنني لم أتذكر صاحبته، وتُهْمهم بصوت مُتحشرج: كيف حالك يا حارس؟

أجد فئة نقدية بين يدي لا أعرف قيمتها، لكن فئة بمقدار حجم كف يدي تبدو مبلغًا كبيرًا، فحمدتُ الله، أتساءل مَن صاحبة العطاء؟ فلمْ

أجد جوابًا، أقبض على النقود التي وضعتها داخل جيب جلبابي، عادت بائعة الشاي التي كانت في رحلة لجمع أكوابها الفارغة، المتناثرة عند بعض البائعين، تهمس لي بأن تلك السيدة التي كانت تقف معي، تسير وهي تكفكف دموعها، فهل تعرفها؟ فهززتُ رأسي:

– اليوم صرت لا أعرف أحدًا، بل سألتني عن حالي، وتركتْ لي هذه النقود.

بائعة الشاي، وكلامها المُمتزج بالسخرية:

– يبدو أنها تعرفك جيدًا، لهذا المبلغ الذي قدمَته لك؛ فقد منحتك مبلغ خمسين جنيهًا. أكملت حديثها عن فضائل صاحب المقام، وتجهر بسعادتها على الملأ: "شي لله يا سيدي إسماعين يا إمبابي".

تمدُّ يدها لي برغيفين مملوءين بالأرز وقِطع اللحم، فأمسكتُ بهما داخل لُفافة من ورق الجرائد، وأخذتْ تحكي قصة النفحة التي يختصُّ بها سيدي إسماعيل الإمبابي، دون غيره من الأضرحة، وتلك النفحة المُستحبة بين المتصدقين، بأن تكون لحمًا، وليس كُرَّاتًا ودُقَّة، كما حدث في سيدى أحمد البدوي، وواصلتْ حديثها عن قصة الشيخ أحمد البدوي، الذي هو والد إسماعيل الإمبابي؛ ووالده في الطريقة الصوفية، ودائمًا تقول لي أبوك أحمد البدوي قال لأبيك إسماعيل الإمبابي، وحكت أيضًا قصة بناء مسجد الشيخ أحمد البدوي بمدينة طنطا، عندما ذهب له أبناؤه من المريدين؛ ليشكوا له سيدي إسماعيل بعدم مساعدتهم في بناء المسجد، نظروا إلى أعلى، فوجدوه يصعد المئذنة،

يحمـل قصعة ممتلئة بالملاط، ظل البنَّا يسـتخدمها طِيلة النهار دون أن تفرغ، ظلت حكاية القصعة كرامة من كرامات الشيخ أبي السباع الإمبابي كما يُلقبونه، وتتناقلها الألسـن عبر قرون مرَّت، وكما منحه أبوك أحمد البدوي يومها مليمًا، وظل هذا المليم يُصرف من مقام البدوي بطنطا، إلى صندوق نذور سيدي إسماعيل بإمبابة بمقدار اثني عشر جنيهًا كل عام.

مرت أيام المولد، أنصتُ لهذيان بعض مُريدي الشـيخ عن كرامات شـيخهم، وحـال الزائرين بين مُشـفق على حالي، ومُحسـن بصدقة في يـدي السـفلى، وعرفـتُ بعـض النـاس، ولـم أعـرف بعضهـم الآخر، حاولت الهروب من أصوات أعرفها، وأدور حول نفسـي، وأداري هذا الخجـل المفـرط الذي ألـمَّ بي، لكن لـم أجد إلا الصبر علـى مُكبرات الصوت، التي أصابت رأسي بصداع، وصوت صفير قِطار المناشي يمر بجـواري، ولم يعد يقلقني صوت صفيره؛ لهـذا الزحام والضوضاء في محيط المسجد، أهرب من صراخ أطفال: بنات وبنين يُختنَّ في المولد، ونلتـف حول المَختون؛ لكي نأخذ النفحة، وإن كانت نقودًا ندسُّـها في جيوبنا، وإن كانت طعامًا نلتهمه في عجالة، وأصغي السمع لربما هناك ختان جديد، يسـحبني من يدي زميل مهنة الشحاذة إلى الخاتن، أو إلى متصـدقٍ قادم، وأذهب في أوقات الصلاة داخل المسـجد؛ للقيام بأداء الفريضـة، والبحـث عن مُتصدق جديد، وأتحسـس الجـدران قصدتُ الضريـح عن يمين باب المسـجد لقراءة الفاتحة، أسـمع صوت مُبتهل يتغنـى بتلـك القصيـدة المكتوبة، والمعلقـة بجوار الضريـح في صورة كبيرة ذات إطار ذهبي اللون، ومكتوبة بمِداد أسود:

**يا سـائرين في رُبــوعِ الوادِي تبغون أهـلَ القربِ والإسعادِ**
**هـذا مقـام العــارفِ الإمبابي فيه السكينـةُ والخشوع البادِي**
**وعليـه نورٌ من ضيـاء الهادِي يراه كلُّ تَقيٍ ومُلازم الأعتابِ**

سـمعتُ صـوت بـكاء، ظننـتُ أن الخشـوع لامـس قلـب الباكـي، والحقيقـة هـي اسـتغاثة لرجل، ويبدو مـن لهجته القروية أنـه؛ جاء عن طريـق الأبواب الخلفية؛ ليلتمس البركة، ويطلب من صاحب المقام أن يعيـد له حافظة نقوده التي فقدها، فتذكرتُ دعاء والدي منذ ثلاثة عشـر عامًا حول هذا الضريح، وهمستُ:

– الرجاء موصول، والموتى لا يسمعون.

أشـعر بأنني حجـر صلد، مُلقًى علـى قارعة الطريق، حجـرٌ لا يعلم القادمُ، فهل هو كلب يبول عليه، أم جليس يذكر الله؟ مرت أيام المولد سـريعًا، ولمْ يكُن في الحُسـبان شيء ممَّا وصلت إليه، ولمْ أُرِد الذهاب إلى الغُرفة، ففضلت البقاء، يعتصرني الألم بجوار بائعة الشاي، وأسمع أصـوات النـاس وهـم ينفضـون، ويحمل البائعـون بضاعتهـم، ويقتلع المريدون أعمدة الخيام، تطلب بائعة الشـاي ألَّا أبتئس، بل أعود إليها، سـوف تفعل أشـياء هي خير لي، تعرف المتصدقين، وسـوف تحدثهم لرعايتي، وجاء برأسي سؤال:

– مَن هي صاحبة الخمسـين جنيهًا؟ ولِمَ كان بكاؤها؟ فهل حارس لا يزال يستحق دموع إحداهنَّ.

# (6)

لـكلِّ حكاية نهايـة، وانقضت الحكاية الطويلة، بمـا تحمله من خير وشـر؛ لتبدأ حكاية أخرى أكثر شقاء من التي سبقتها، وطلبتُ من فاعل الخير -الذي قرر مسـاعدتي- أن يصطحبني إلى بدرومات أرض عزيز عـزت، أبلغتـه العنـوان، وبعد ذلـك جمعني بـه أكثر من لقـاء للحوار، والجلوس على المقهى لنتبادل الحكايات، قصصت عليه حكايتي؛ لعله يكون من المحسـنين؛ لأنني أجدت أيـام المولد إبراز حاجتي، والتفنن فـي طلب العَوَز "بقدم مرتعشـة أتحسـس دَرَج السُّـلم، فهـوَت، ظللتُ راقدًا أتحسـس النقود في جيبي، وأخشـى فُقدانها، تسـتعر نار الحسـرة داخل صدري، أنامل ناعمة تمسـح دموعي، وتمسـك بي من معصمي؛ لتعينني على الوقوف مُستسـلمًا لها، كما استسـلمت لِعلّتي، تشـاركني البكاء، فأحتضنها بشـدة، فتذكرت تقبيلى لها منذ سـنوات،عاتب عليها كيف تتركني هنا وحدي؟ فتعتذر لي على رحيلها، وتهمس في أذني أنها لـن تتركني بعد اليوم، وكأننـا حبيبان تفرَّق كلٌّ منَّـا مرغمًا عن صاحبه، ولملمَت أصابع القدر بقايانا".

أتوكأ على جسـدها النحيل الناعم من الممر إلى سـريرها، ترجوني البقـاء معهـا بغُرفتهـا للصباح؛ خشـيةً علـيَّ، فطلبت منها فـي حزم بأن تذهـب لتحضر لنـا مأذونًا؛ لكي نعقد القِـران الآن، إن كانت ترغب في الزواج من أعمى، فهل تسـتجيب سـامية لطلب الـزواج؟ صمتَت، ولم

أسـمع صوتها، فتكفكف دموع عينيها، همستْ بصوت ممتزج بالدموع والفرحة في أذني، بأن الليلة يستجيب الله لدعائها، مرت ثلاثة أيام على الزواج، وأصبحت بين عشية وضحاها مِلكًا متوجًا لمملكة بائسة، أتت أُمها تبارك لنا على مَضض، أسمع همسها لسامية زوجتي:

– أيُعقل بأن يكون آخر هذا الصبر أن تتزوجي بأعمى، وأصغر منكِ بخمس سنوات؟

أَلمْ تعلم أُم سـامية بأنني أعمى، وليـس أصمَّ؟! فلمْ تُضِف لأحزاني شيئًا، لكن سامية لم تصمت، بل واجهتها بقوة مفرطة:

– أَلم تفعلين أنتِ هذا الأمر من قبل وزواجك الغير مبرر الذي جعل الناس تلوك فى سيرتنا؟

اشتمَّت أنفي من كلمات سامية عن زوج أُمها، بأن الرجل يضايقها، وعندما قالت بصوت حازم:

– البقـاء بهـذه الغُرفة خائفـة من مجهول يأتي، أو ربمـا لا يأتي خير مليـون مرة من الخوف من واقع مُخيف، يشـاركني المأكل، والملبس، والرقاد بمباركة أمي.

فانصرفـت الأم تتمتم بأنها تتبرأ من هـذه الزيجة، واللعنة على ابنتها العاقـة، وعُدنا لممارسـة الحب بقوة الليلة أكثر مـن مرة، كأننا ننتقم من أُم سامية، وغيرت سامية ملاءة السرير مرتين أو ثلاثًا، مما كانت تدخره من لوازم زواجها من فرش وأوانٍ، كانت مخزنة في كراتين بالغرفة منذ

زمن، ثم أجلستنى داخل الطِّشت النُّحاسي الذي أحضرته معها أُمي من قريتنا، ومنذ سنوات لم تستعمله لضيق المكان، فجلبته سامية من غُرفتنا، أخذت تصب الماء الساخن على جسدي، صرت منذ تزوجت آنس للاغتسال في اليوم أكثر من مرة، أزالت سامية ترابًا ممتزجًا بعرق الليالي الحارة الماضية، التي قضيتها بالمولد أزاحم المتزاحمين، لم تستحِ سامية من أعضائي، كما استحييتُ أنا من أعضاء سمير مبروك، يبدو أن الرجل بداخله طفل لا يكبر، تذكرت مشهد هذا الطِّشت، كان يسعنا أنا ومحروس صغيرين، أرغت شعر ذقني، وبآلة الحلاقة أزالت ما بها من شعر؛ حتى أصبحت مثل الحرير، وظلت تفعل ذلك صباح كل يوم، أبلغتني أنها كانت دائمًا تُحب أن تراني كذلك، فبادلتها بشرودٍ صامت هذا البوح، أحضرت علبتها الخاصة، بها خليط من السكَّر والليمون المطبوخ على النار، وبدأت تزيل شعر إبطى فأتألم، فتضحك، وترجوني أن أتحمل، لقد أوشكت أن تُنهي المهمة.

ثلاثة أيام كانت هي الأجمل بعد عامَيْ حُب نرجس، لم أكن المستمتع الوحيد بليالي الجنس الدائم، لكن سامية تروق لها فُحولتي، لكنها لم تكن بِكرًا، ولم أتوقف أمام هذا الأمر كثيرًا؛ طويته، مثل كثير من الأشياء التي طويتها تحت صخر الصمت الجاثم على صدري، قد أعطيتُ لها نقودي التي اكتسبتها من التسول، تمنعت بأنها تمتلك نقودًا، حُجتها: فلْتشترِ لكَ بعض الملابس الجديدة، وهمستُ في سريرة نفسي:

- الشحاذ لا يرتدي الجديد.

لـمْ تكُـف عن مداعبتـي، وحالة من السـعادة تظهر عليها، أشـعر أن مبالغتهـا لإظهـار سـعادتها لأمر ما في نفسـها؛ لأنها تريـد أن تُثبت لي، بأنهـا أفضل من نرجس، وعندما انتهينا مـن لذة الجنس اضطجعنا عراة تمامًا، تهمس في أذني:

- هل لا تزال تتذكر نرجس؟

صمتُّ وطال صمتي، فلم تُعِد عليَّ سـؤالها؛ لعلمها بالإجابة، على الرغـم مـن ذلك؛ فإنهـا لم تصرف نفسـها عن السـعادة، مـرت الليالي العشـر الأولى، تحسـنت صحتي، أشـعر كأنني فحل جاموسي، مهمته في الحياة: الأكل، والوثب أكثر من مرة في اليوم، ذهبت سامية للعمل، وطلبتُ منها بأن تصطحبني إلى مسـجد سـيدي إسـماعيل، فلِي بعض الأصدقـاء هناك، أريد الزيـارة، والصلاة، والترويح عـن النفس ببعض الحكايات، لكن السـر الكبير الذي احتفظت لنفسـي بـه، يراودني أثناء الأيام العشرة، هو كلمات بائعة الشاي بأنها سوف تجلب لي الخير عن طريق أحد الأغنياء، وتركتني سامية بجوار بائعة الشاي، وتودعني بِرِقَّة، وكلمات بها أنوثة مفرطة، تعدني بأنها لن تتأخر.

همـس في أذنـي شـيطان ظنوني: أيـن عملهـا؟ والسـيارة الحمراء بجـوار (مسـرح البالـون) تُمثـل حائـلًا كبيـرًا، لكنني أحـاول تجاوزه، فهززتُ رأسي كغِصن شجرة جاف الأوراق تتلاعب بها رياح أمشيرية، فتسـاقطت ظنونـي مع أول هبوب، أنفض كل شـيء يحـاول أن يقتحم

هـذه المملكة الجديدة، وبأُذني صدى صوت سـامية، وهي تهمس لي، بأنها سـوف تجلب ما طلبت، أريد حرق الحشـيش معهـا، فبعد أن نفد ما ادخرته من قِطَع الحشـيش في أثناء أيام الزواج، ذهبَت زوجتي وهي توصي بائعة الشـاي بأن تكون حريصة على حبيبها وزوجها، أمسـكت المرأة بي من ذراعي اليمنى، توصي أحدهم بأنها دقائق وسـوف تعود، وتطلب مني السير بجوارها، أكون حذرًا من عراقيل الطريق، فتبسمْتُ.

– لا تخافي؛ أحفظ هذا الطريق وكل طرق المدينة.

بصوت أكثر تحذيرًا.

– الدنيـا لا تُبقي الأشـياء علـى حالتها كثيرًا، فلا تأمن مكر شـيء يا حارس.

لـمْ أذُم، أو أمتدح كلمات المرأة، ولكن كان لوقعها في نفسـي تأثير كبيـر، وفتحَـت لي طريقًـا لا نهاية له مـن التأمُل، بأن كل شـيء لا يظل علـى حاله، هل أظل أنا على حالي؟ وينتهي بـي الأمر على هذا النحو، التسـول مـن خلـف ظهر سـامية، كما أخفت هـي عملهـا الحقيقي، إن كنـت غير متيقن من ظنوني، لكن كونها ثَيبًا حقيقة لا أسـتطيع نكرانها، أو التحـدث بهـا، أهـرب مـن المواجهة مثـل: العاصي الـذي لا يحب الحديث عن المـوت، والثواب والعقاب، والجنة والنار، هذه الأشـياء كلها تُكدر عَيشه، وصفاء المتعة ينقلب إلى ضباب.

أجلستني بائعة الشاي في مكان ما، وأسمع صوت أشياء تُباع حولي، وصوتًـا لنقل بضاعة داخل صناديق السـيارات، عادت تهمس في أذني

بأن البك قادم، حاولت إبراز حاجتي للعَوَز أكثر، برسم حالة من البؤس الشديد على هيئتي، التي هندمَتها سامية منذ ساعة، ويواسيني في مصيبتي صوتٌ أعرفه، فإنه حزين جدًّا مما وصل إليه حالي، يذكرني بأيام الطفولة؛ عندما جمعنا مقعد واحد داخل المدرسة، استرسل بكلمات تُشعرني بالقيمة الحقيقية، التي ظللتُ وقتًا طويلاً أهرب منها، لكن ياسر المنزلاوي يُخضع الظروف كلها، لتأكيد قيمتي الحسابية التي بطرحها، أو جمعها لن تضيف شيئًا، يرتدي ثوب الجود، ويهمس:

- لا تخشَ شيئًا من اليوم، اعتبرني بمنزلة أخيك.

منحني رحمته؛ فئة نقدية قبضت عليها، أعتصرها، وأشعر بأنها جمرة تحرق راحة يدي، وانصرفت دون معاونة أحد، أشكر ياسر المنزلاوي على جوده، لكن أشعر بدوار يكاد يفقدني القدرة على السير، أكاد لا أسمع صوت السيارات التي تحيط بي من كل جانب، تستوقفني كلمات بائعة الشاي التي أتت مهرولة خلفي تضحك، تعلو صوتها نبرة من الخبث:

- الرجل يعشق زوجته كثيرًا، ويسمع لها، ولم أعرفها ليلة المولد حين منحتك الخمسين جنيهًا؛ لكنه عرَّفني بها الآن؛ لَهما ابن جميل يُشبه أمه.

# (7)

سقطت من على خشبة مسرح ياسر المنزلاوي، المسرح التراجيدي لـي، والكوميدي السـاخر له، الاتفـاق بينه وبين بائعة الشـاي على هذا الأمر، بأنه أسرَّ في أُذن المرأة ليلة بكاء نرجس، عندما رأَت المتصدقين يمنحوننـي الصدقـات بالمولـد، فـأراد أن يثبت لزوجته التـي أحضرها معـه؛ لتشـاهد المتسـول الذي كانـت تُحبه، أو يشـك أنها إلـى الآن لا تزال؟ والشـك، أو اليقين يجعله يواصل سـيل سـخافاته التي لا يَملها، ويقر لزوجته بأن ماضيها اليوم صار بلا ثمن، وذبحني بسكينٍ باردٍ دون أن أنـزف قطـرة دم واحـدة، المُقت الـذي يحمله صدري، لـمْ يغير من الحقيقة شـيئًا، فهدأَت نفسـي بعض الشـيء عندما شـعرت بأنَّ لا بديل عن الاستسلام، الفقراء مع كثرة العَوَز، وسيف الإملاق يصبحون أناسًا جلودهم سـميكة، فلا تؤلمهم صغائر الأمور، ولـمْ أحسـن الظن بياسر، ولـو مرة واحـدة؛ ممَّا فعله، تقترب سـامية خائفة عليَّ من هذا الشـرود الجامـح، أحضرتْ الطِّشـت، والصابون، والمِنشـفة، وتنتظر قِدر الماء أن ترتفـع درجة حرارته إلى الغليان؛ لتمزجه ببعـض الماء البارد، حتى يصبح دافئا، تقترب رائحة عطرها؛ لتملأ أنفي، وبدلالٍ منقطع النظير.

– ما سر هذا الحزن العميق الذي جعل الاسوداد يكسو وجهك؟

أرقـد بجوارهـا، ولـم تجـد جوابًا على تسـاؤلها، أضع نفسـي على

ميزان التقييم، يساعدنا الظلام على رؤية النفس على حقيقتها، حاولَتْ مداعبتي، لكن لم تجد إلا هذا التمثال الراقد، واختفت معالمه خلف سحابة من الشجن، ووضعتْ يدها تتحسس أعضائي التناسلية، فأبعدتُ يديها ببطء، أطلب منها توضيحًا للعواصف التي تدور برأسي، تذكرتُ كلمات بائعة الشاي، والأستاذ رأفت، والسرِّيحة، وهؤلاء الناس كلهم أرادوا، فكانوا ما يريدون، وهمستُ برجاء مفقود للمستقبل:

- هل سنظل على هذه الحال؟

رفعت رأسها عن صدري:

- أيَّة حال تقصد؟ فهل مللت عِشرتي؟ أم تريد الذهاب إلى ضريح الإمبابي؛ لتجلس بجوار بائعة الشاي.

ساد الصمت بيننا، هذه أول ليلة نصطدم بالواقع، وتذهب عنا نشوة الزواج، ذهبت سامية بخَلَدها بعيدًا عن الغُرفة، وأول مرة تصمت دون أن أطلب منها الصمت: بماذا تُفكرين يا زوجتي؟ وماذا تقصدين بالذهاب إلى ضريح الإمبابي، فهل كُشف السر، كعادة الغرف لا يؤتمن لها سر؟

* * *

صوت ضجيج بالممر، فذهبت سامية تتقصى الخبر، فوجدت ناصر شكر الله، ومعه بعض من الرجال، والشباب القرويين، يرتدون كلهم الجلباب البلدي ذا الكُمّ الواسع، وبعضهم مُعَمَّم، والآخر ذو

شعر منكوش، تظهر آثار السفر عليهم، يضعون متاعهم داخل غُرف السرِّيحة، وحتى غُرفة سمير، وعمّ عرفة، والأستاذ: رأفت، فقد حُطّمت الأقفال الحديدية عن الأبواب كلها، واختار كل شخص غُرفة.

فهمست سامية بعد وصف ما يحدث بالممر، قالت بشيء من الخوف:

- يبدو أن الغُرف ستعود لماضيها!

تبسمت بحزن عميق: لا تزال الأبواب الخلفية للمدينة مفتوحة على مصراعَيها.

في جوف الليل سكنت الغُرف كلها، إلا أنا وسامية نحرق الحشيش، نتبادل الكلمات عن المتغيرات الجديدة التي طرأت على الغُرف، كيف سنواصل العيش بين هؤلاء الناس؟ غدًا سوف يجلبون أُسرهم، حذرت سامية بألا تخرج إلى الممر، أو تقصد الحمَّام دون أن تسدل على جسدها جلبابًا واسعًا فضفاضًا، وتغطي شعر رأسها، لثمَت شفتيَّ بقُبلة سريعة، وأخبرتني أنها تسعد بغيرتي عليها، طرأ على خاطري شيء قد بدا لي مُهمًّا جدًّا، همستُ بأننا نملك غُرفتين الآن: غُرفتي، وغُرفة سامية، سوف يأتي يوم تكون هذه الغُرف لها ثمن؛ مثل المقابر التي ارتفع ثمنها؛ لكن الغرف ندفن بها أحياء، فالآن الملكية بوضع اليد، فهناك غُرفة وحيدة لم يدخلها أحد، ارتشفتُ أنفاسًا متعاقبة من السيجارة أتعمق بتلك الفكرة، تراقب صمتي، وتُهمهم: بماذا تفكر يا حارس؟

– إذا لم نسعَ نحن للتغيير فلا نتمناه، وهذه الغُرفة يجب أن تكون لنا.

توجسَت خيفة، وتخمش صدرها كعادتها، وتتهمني بالجنون:

– نأخذ غُرفة العفاريت؟!.

ما زلتُ أذكر حكاية الرجل الأعمى صاحب سيارة الأُجرة على موقف السيارات، يوم أن كنت بصحبة محروس، حكى لي عن هذا الرجل الذي صار صاحب سيارة، والآن يجلس على المقهى وسط أصحاب السيارات، نهاية كل يوم يتقاضى نقودًا من السائقين؛ ثمن العمل عليها، إنها تُدر عليه دخلًا كبيرًا، وتكفيه شر العَوَز، بل يدخر منها، وسوف يبتاع سيارة أخرى من النقود المُدخرة.

أواصل البحث عن القدوة، كما اقتديت بالأستاذ: محمد الشاعر، لكن انصرفت عنه إلى الملاكم العالمي الذي مسح الأحذية، والآن أبحث عن قدوة جديدة بين عالم العميان، سوف تتناسى الناس ماضي حارس كما تناست الرجل الأعمى، بأنه كان يومًا ما شحاذًا، بدأ الأمل يتصاعد داخل أوردة قلبي، منحتني علاقتي بسامية مواصلة العيش داخل غُرفتي الوهمية، التي عِشت سنوات أجتر الأحلام وحيدًا داخلها.

عاد لي حُلم السكن فوق الأرض بقوة في صباح اليوم التالي، منذ توجس سامية من الغُرفة بعد أن خرجوا جميعًا يدفعون عربات ناصر شكر الله، خلا علينا الممر الذي صار نظيفًا بعدما كنسته سامية، عاد عليه السرِّيحة الجدد، شرعنا نحطم قفل باب الغُرفة الخالية؛ الذى علاه الصدأ؛ ووضعنا بدلا منه قُفلًا جديدًا؛ لتصبح لنا.

غطى التراب أثاثها -داخل غُرفة العفاريت- كلَّ شيء، ولم نجد إلا سريرًا، ومقعدًا، ومكتبًا، وكُتبًا كثيرة متراصة داخل صناديق من الورق المُقوَّى، وأخرى موضوعة على أَرفف خشبية، ودفتر أشعار على المكتب، وبعضًا من الملابس المعلقة داخل خزانة قديمة، وبقايا طعام متيبسة متحللة داخل أطباق متروكة منذ سنوات، ونافذة الغُرفة الصغيرة قد كستها عوامل التعرية، تدخلها الرياح المُحملة بالأتربة، فتبسمتُ لمعرفة سر الخشخشة التي سمعتُها منذ سنين، صورة مسحَتها سامية بيدها:

- الشاب صاحب الصورة يُشبهكَ كثيرًا.

تصف شكل صاحب الصورة، كما وصفت لي أشياء الغُرفة بدقة، فضحكتُ من كلماتها لوصف صاحب الصورة، تواصل شرحها المفصل عن الغُرفة، وقراءة الدفتر الخاص، وتخيلت مائة تخيُّل لحياة صاحب الغرفة، ونهايته الغامضة.

ينطق صوت سامية بعض الكلمات صحيحة، والأخرى أعرفها لحال وجودها داخل سياق الجملة، كتب صاحب الغرفة والدفتر على الصفحة الأولى لغلاف دفتره:

"الحقيقة الوحيدة داخل النفس البشرية هي الموت، ما عدا ذلك، فوجودُه مرتبط بالظروف الوجودية للنفس؛ فالحرية لم تشعر بها النفوس كلها، وكذلك الحب، والفقر، والغِنى، والبكاء، والضحك، والبُغض، والخوف، والقهر، والرضا، والكذب، والصدق، والصحة، والمرض، والعدل، والظلم، وهذه المتناقضات كلها لكل نفسٍ نَصيبٌ

منهـا؛ لكن بقدر الحرب الدائرة منذ بـدء الخليقة بين النفس ومتطلبات الحيـاة، وأقرَّ داخل هذا الدفتر بأن الإنسـان عبـدٌ لقانون الوجود، فلهذا قـررت أن أحطم جدار عبوديـة الوجود، أحـارب كل بيروقراطية تقف أمام صرح أحلام لن أتنازل عنها".

فاقشـعرَّ بدني، أسْتَرِق السـمع، أدقق في تلك المعاني البسيطة التي تحمـل كثيرًا، طلبت من سـامية قـراءة هذه الكلمات مـرة أخرى، حتى بـدأتُ أحفظها، وأيضًا طلبـت منها قراءة عناوين بعـض الكتب، مدَّت يدها بالقرآن الكريم، أمسـكتُه بيدي أمسـح بطرف كُـمّ جلبابي الغلافَ الخارجي، تواصل لي القراءة:

"صحيـح البخـاري"، "محمـد بـن إسـماعيل البخـاري"، و"ثـروة الأمـم وأسـبابها"، "آدم سـميث"، و"المقدمـة" "عبدالرحمـن بـن خلـدون"، و"الأصول الرياضية للفلسـفة الطبيعية"، "إسـحاق نيوتن"، و"الجمهوريـة" "أفلاطون"، و"القانـون" "ابـن سـينا"، و"رأس المال" "كارل ماركـس"، و"النظريـة النسـبية" "آينشـتاين" "الأميـر" "نيقـولا مكيافيلـي"، "رسـالة الغفـران" و"ألـف ليلة وليلـة"، و"كليلـة ودمنة"، و"طوق الحمامة"، و"ثلاثية نجيب محفوظ".

هنا تبسـمتُ آمرها بأن تكف عن تصفح ما بقي، هززت رأسي أقهقه بطريقة تشـبه الجنون، فرحة عارمة تشـبه سـعادة مارد خرج من القُمقم ولن يعود إليه، حتى سـمعت من سـامية كلمات التعجب، تسـألني عن سر سعادتي؟

– كانت بهذه الغُرفة قصة كبيرة عميقة، لكنها لم تكتمل، بل ساعدتنا الطبيعة في إهالة التراب عليها.

فتوقفت سامية عن التنقيب في الغُرفة:

– بكمْ سعر كيلو الورق؟ وهذه التلال من الكتب تتوقع أن تَزِن كم كيلو؟

متجاهلًا سؤالها، تطلُّ رءوس البوم على ذاكرتي، تحطم جمال الفرحة، بأن هذه الكتب الكثيرة والقيمة ليس لها معنى بالنسبة إلى أعمى، تمنيتُ لو أننى حطمت قُفل الغُرفة منذ أن حضرنا إلى القاهرة، لكنَّ حظي دائمًا أن تأتي قافلة الاستغاثة بعد القنوط، تقترب منى وهى تتحدث عن صورة الشاب صاحب الغُرفة التي أعطتها لي، فتمازحني مبتسمة: لنحتفظ بها؛ فلربما عندما نكبر أن نقول هذا حارس أيام الشباب.

تذكرتُ حُلمي القديم، الذي ظل يراودني سنوات سقوطي داخل الحفرة بالغرفة المظلمة، وتشبُّثي بالكتب قبل السقوط، همستُ في صوت يحمل التشاؤم:

– هل تظنين أن نظل مع بعضنا حتى نكبر؟ فأنا أشتمُّ رائحة الموت داخل هذه الغُرفة.

اقتربتْ مني تُقبل جبيني، وتدعو لي بالعُمْر المديد:

–هل تزوجتَني؛ لتحرق قلبي عليكَ، وأنت تعلم كم أحبك! كأنها تذكرتْ شيئًا ما:

- لماذا قَبِلتَ الزواج مني؟!

طـال صمتي؛ أنقب داخـل ذاكرتي المزدحمة عن سـبب مُقنع، كما لـم تتوقف هي عن التنقيـب داخل الغُرفة، تنتظر الجـواب، على الرغم من ظنون كثيرة سـتظل تُقلق راحتي على سريرها؛ فإنني دائمًا أشعر بأن سـامية زوجة غير مكتملـة، أكبح عني هذا الهمس الشـيطاني، ألجمتُ لسـاني عندما كنت سأطلب منها بأن تُحضر تاجر الورق، أسمع صوت السـكان الجُـدد قادمين مـن العمل، البحث عـن بقايا الأشـياء القديمة تمنحهـم الغِبطـة، بِيَـد كل منهم شـيء مسـتعمل احتفظ به لنفسـه، كما أبلغتني سامية التي تتعجب لطول صمتي، فأطالبها بوضع القُفل الجديد جيدًا على الباب، أحمل بين يدي صورة الشـاب، الدفتر الخاص الذي أنوي أن تُكمل لي قراءة صفحاته.

تقترب سـامية في تحدٍّ غير مسـبوق، أشـعر بأنفاسـها تلفح وجهي، تريـد الجواب بإصرار، فأعادت عليَّ سـؤالها: لمـاذا قَبِلتُ الزواج مني يا حارس؟

أنصـرف؛ أتحسـس جدران الغرفـة، أبحث بقدم مرتعشـة عن فُوَّهة الطريق، أخشـى خُطواتي، أنصت لِحَسـيس الظلام، تتلقفني ظنونُ اللَّا نهاية، واللَّا مَكان، بصوتٍ يُشبه الهمس:

- ليس على الأعمى حرج.

انتَهَتْ